قتيبة بن مسلم

تأليف

صلاح محمد عبد الحميد

مؤسسة دار الفرسان
للنشر والتوزيع
٥١ ش إبراهيم خليل – المطرية
ت : ٢٢٥١١١١٠ -٠١٢٩٨٧١٢٣٧

اسم الكتاب :فرسان الإسلام (قتيبة بن مسلم)
المؤلـــف : صلاح محمد عبد الحميد
الناشـــر : مؤسسة دار الفرسان
تصميم الغلاف: فريرنت- 0104470645
رقم الإيداع : 8921
طبعة ثانية : 2016

فهرسة أثناء النشر

عبد الحميد ، صلاح محمد
فرسان الإسلام / إعداد صلاح محمد عبد الحميد – القاهرة .- ط1
مؤسسة دار الفرسان للنشر والتوزيع
88 ص ؛ 24 سم
تدمك :7-28-6169-977
1 – تراجم - الإسلام
أ. العنوان 922.1

إهداء

إلى أرواح الشهداء الذين

ضحوا بأنفسهم ودمائهم

فداءاً للإسلام ..

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لعل أبرز ما امتاز به عصر بني أمية كثرة الفتوحات شرقاً وغرباً، وبلوغ الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها، فامتدت رقعتها قريباً من سور الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً؛ بحيث إن الخلفاء العباسيين الذين ورثوا هذه الخلافة الكبيرة المترامية الأطراف؛ عجزوا عن الاحتفاظ بكل ما فتح من أقاليم في عهد أسلافهم الأمويين.

ويشير ابن كثير إلى خصيصة الفتوحات التي اشتهر بها العصر الأموي ويقول :

"وكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله؛ وكان في جيوشهم الصالحون والعلماء وكبار التابعين، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه ... فكان سوق الجهاد قائماً في القرن الأول من بعد الهجرة إلى انقضاء دولة بني أمية ... في بلاد الروم والترك والهند".

وقد اقترن بفتوحات بني أمية انتشار الإسلام واللغة العربية ؛ فعصر بني أمية هو العصر الذي اتخذت فيه الدولة طابعها العربي الإسلامي بشكل نهائي، حتى إن العروبة والإسلام هما الملمحان البارزان اللذان اتسمت بهاما البلاد المفتوحة في العصر الأموي.

إنه قتيبة بن مسلم الباهلي، أحد ثلاثة كبار اقترنت أسماؤهم بالحركة التوسعية في مداها الأعظم في العهد الأموي (المرواني)، إلى جانب محمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير، والتي شكّلت الفصل الثاني بعد منجزات العهد الراشدي الأول. كانت الخلافة الأموية.

حينذاك، قد خرجت الدولة الأموية بصعوبة من محنتها، بعد سقوط الفرع السفياني المؤسس لها، واستعادت وحدتها السياسية في ظل شخصية المرحلة الجديدة عبدالملك بن مروان، مكتسبة معه سمة «الدولة» على مستوى الإدارة والاقتصاد، والعلاقات الخارجية بعد تنشيط الجبهات العسكرية، التي خمدت لسنوات، كانت الخلافة منصرفة خلالها إلى مواجهة أزماتها الداخلية. وما كاد يعمّ السلام على أرضها، حتى كانت الحملات تعود، وبصورة أكثر فاعلية، إلى وتيرتها السالفة.

وهذا الكتاب الذى بين ايدينا يستهل صفحاته بالتعريف بالدولة الأموية وأهم خلفاؤها وأهم الفتوحات التى تمت فى ذلك العصر ، وذلك لكى نلقى الضوء على شخصية " قتيبة بن مسلم " ، و لكى يتعرف النشء على سماته وصفاته الشجاعة التى لم تهاب الحرب والخوض فى سبيل الله لفتح بلاد ما وراء النهر .

المؤلف

صلاح محمد عبدالحميد

الدولة الأموية (٤٠هـ/١٣٢هـ)

ينتسب الأمويون إلي أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الذي كان من سادات قريش قبل الإسلام ومن رجالتها المشهود لهم بالنفوذ والغنى مما أكسبه أهمية ومقام عمه هاشم بن عبد مناف ، وقد تنازع بنو أمية وبنو هاشم على زعامة قريش قبل الإسلام ، فكانت السادة العسكرية لبني أمية وإطعام الحجيج وسقايتهم والأشراف على الكعبة من نصيب بني هاشم .. وقد امتد عهد الدولة الأموية من عام ٤١ وحتى العام ١٣٢ للهجرة ..

معاوية بن أبي سفيان:

هو مؤسس الدولة وواضع بنيانها وسياستها وخططها ونظم حكمها ، ولد في مكة قبل الهجرة بخمسة عشرة عاما وأسلم يوم فتح مكة مع والده أبي سفيان وشهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم غزوة حنين،وكان من كتاب الوحي وفي خلافة أبي بكر شارك في فتوح الشام تحت إمرة أخيه يزيد وجعله عمر بن الخطاب واليا على الأردن ثم ضمت إليه دمشق وفي عهد عثمان صار له ولاية الشام كلها واستمرت ولايته عليها عشرين عاما ، عرف عنه المكر والدهاء والبلاغة والفصاحة وحبه للرئاسة واجتمعت فيه خصال الجرأة والحزم والحكمة ومما أخذ عنه قوله:

(لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت

إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها)..... وقال عنه الطبري(مربي دول، وسائس أمم، وراعي ممالك).

ومن بين أعماله:

١. حول نظام الحكم في الدولة الإسلامية إلي النظام الوراثي بعد أن كان قائما على الشورى بأخذه البيعة لابنه يزيد ليكون خليفة من بعده ، وقد تسبب هذا في إثارة النزاعات والانقسامات طوال عهد الخلافة.
٢. اتخذ من دمشق عاصمة للدولة العربية الإسلامية بدلا من المدينة المنورة .
٣. بنى الأسطول الإسلامي عندما كان واليا على الشام بتوجيهات من عثمان بن عفان .
٤. تصدى بقوة لثورات الخوارج والشيعة وسفك دماء الكثيرين منهم .
٥. أنشأ ديوان الخاتم وديوان البريد وديوان الرسائل .
٦. جهز جيشا عظيما لفتح القسطنطينية عام ٤٨هـ لكنه لم يتمكن من فتحها .

خلفاء الدولة الأموية:

- معاوية بن أبي سفيان (من عام ٤١الي ٦٠هـ)
- يزيد بن معاوية (من ٦٠ إلي ٦٤هـ)
- معاوية الثاني (من ٦٤ إلي ٦٤هـ)

- مروان بن الحكم (من ٦٤ إلي ٦٥)
- عبد الملك بن مروان (من ٦٥ إلي ٨٦هـ)
- الوليد بن عبد الملك (من ٨٦ إلي ٩٦هـ)
- سليمان بن عبد الملك (من ٩٦ إلي ٩٩هـ)
- عمر بن عبد العزيز(من ٩٩إلي ١٠١هـ) ولقبه المؤرخون بخامس الخلفاء الراشدين..
- يزيد الثاني (من ١٠١إلي ١٠٥هـ)
- هشام بن عبد الملك(من ١٠٥الي ١٢٥هـ)
- الوليد بن يزيد(١٢٥الي ١٢٦هـ)
- يزيد بن سليمان(١٢٦الي ١٢٦هـ)
- إبراهيم بن سليمان(من ١٢٦ إلي ١٢٧هـ)
- مروان بن محمد بن مروان بن الحكم(مروان الثاني من (١٢٧ إلي ١٣٢هـ)

فتوحات الدولة الأموية :

أولا- فتح بلاد ما وراء النهر:

بلاد ما وراء النهر هي الأراضي الواقعة بين نهري سيحون وجيحون وتسمى حاليا جمهورية التركستان ، وبدأت طلائع الفتح الإسلامي لها منذ عهد معاوية بن أبي سفيان عندما وصل المسلمون بخا ري وسمرقند دون أن يستقروا فيها ..

وفي عهد الوليد بن عبد الملك ، نشطت حركة الفتوحات ؛ حيث كان الحجاج بن يوسف الثقفي واليا على العراق فسير جيوش المسلمين إلي بلاد ما وراء النهر بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي ، وكان الأخير عاملا على خراسان واتخذ من مرو عاصمة خراسان قاعدة لانطلاق فتوحاته فانطلق وعبر نهر جيحون ورغم استشهاد آلاف المسلمين لكنهم تمكنوا بفضل إيمانهم وعزمهم من فتح بخارى عام ٩٠هـ ، وواصلوا انتصاراتهم وتمكنوا من فتح خوارزم وسمرقند وطشقند في عام ٩٣هـ فصارت الأراضي الواقعة بين النهرين جزءاً من الدولة العربية الإسلامية ....

ولم يكتف قتيبة بن مسلم بما حققه وعزم على فتح الصين وفتح مدينة كاشغر عام٩٦هـ وفرض الجزية على ملك الصين ، ولما توفى قتيبة تولى القيادة من بعده يزيد بن المهلب الذي نجح في عهد سليمان بن عبد الملك في فتح جرجان وطبرست.

وقد نبغ من سكان هذه المناطق الكثير من العلماء في ميادين الفقه والحديث واللغة ، وغيرها وشغف الناس بالإسلام لما رأوه من حسن المعاملة فأقبلوا بإيمان صادق وعزيمة راسخة على دراسة العلوم الإسلامية..

ثانيا – فتح السند والمناطق الهندية المجاورة:

سير الحجاج إلي بلاد السند جيوش المسلمين بقيادة محمد بن القاسم الثقفي ، وكان عمره ثمانية عشرة سنة وكان ذلك في مطلع خلافة الوليد !

ابن عبد الملك ونجح هذا الشاب اليافع في فتح مكران وهي جزءان الآن ، الأول يقع في باكستان الحالية والآخر في إيران ،، ثم اتجه شرقا حتى وصل مصب نهر السند ، وفتح مدينة الديبل عام٩٣هـ ، ثم توجه إلي الملتان المدينة المقدسة للهنود فحاصرها ودخلها فاتحا عام ٩٣هـ ، وحطم أصنامها وأنشأ مسجدا في كل مدينة ليكون منارة لنشر الإسلام..

وقد ترك المسلمون لأهل هذه المناطق حرية البقاء على دينهم على أن يدفعوا الجزية ولا يتعاونوا مع أحد ضد المسلمين ومع مرور الزمن أقبلوا على اعتناق الإسلام طواعية ، وبدون إكراه لا سيما في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز .

ثالثا- آسيا الصغرى ومحاولات فتح القسطنطينية:

حاولت الدولة البيزنطية تخطي الحدود بينها وبين الدولة العربية الإسلامية منتهزة فرصة الخلاف بين علي ومعاوية في أعقاب مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فتنبه معاوية للخطر البيزنطي وبنى عددا من المركز الدفاعية شمال بلاد الشام عرفت باسم الثغور وشحنها بالرجال والعتاد ، وكان معاوية قد فتح قبرص عام ٢٨هـ في عهد عثمان ، وحقق الأسطول الإسلامي بقيادة عبد الله بن أبي السرح أول نصر حربي بحري في أول اختبار حقيقي على الأسطول البيزنطي عام ٣٤هـ ليقضي على أخر آمال الروم في استرداد مصر والشام ،،

وخطط معاوية لاستنزاف طاقة العدو فرتب الصوائف والشواتي وهي الجيوش التي كانت تغزو تخوم الدولة البيزنطية وثغورها صيفاً وشتاءً وزاد اهتمامه بالأسطول حتى بلغ أسطول الشام في عهده (١٧٠٠) سفينة.

وحاول المسلمون فتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في عهدي معاوية وسليمان وحاصروها ثلاث مرات في الفترة ما بين ٤٨-٩٩هـ ، وجهز معاوية جيشا عظيما لفتحها برا وبحرا وكان هذا الجيش بقيادة سفيان بن عوف، ومعه عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري وحاصر المسلمون القسطنطينية عدة أشهر وأثناء الحصار استشهد أبو أيوب الأنصاري ، ودفن خارج القسطنطينية بالقرب من سورها وفشل المسلمون في فتحها لقوة ومتانة أسوارها العالية وموقعها المنيع الحصين وفتك النار الإغريقية بسفن المسلمين... ورغم فشل المسمين في فتحها إلا إنهم نجحوا في القضاء على النشاط البحري البيزنطي في منطقة شرقي البحر المتوسط..

رابعا- شمال أفريقيا:

عزم معاوية على القضاء نهائيا على حكم الروم في شمال إفريقيا ، فهيأ عقبة بن نافع لذلك وكان ذو مهارة فائقة وأنزل خسائر فادحة بالروم ، انطلق من درنة وطبرق في ليبيا،وفتح بعض المواقع في تونس ثم اختار موقعا مناسبا بنى عليه قاعدة حربية عرفت باسم القيروان في عام ٥٠هـ (في تونس الآن) لتكون نقطة انطلاق لنشر الإسلام في شمال إفريقيا .

تولى ولاية إفريقيا بعد عقبة فتابع حركة الفتوح الإسلامية ووصل تلمسان ثم عمل على جذب قلوب البربرالذين يشكلون غالبية السكان فأقبل الكثير منهم على دخول الإسلام، كما حاول السيطرة على معقل الروم في قرطاجة ولكن محاولته لم تنجح .

تولى عقبة ولاية إفريقيا للمرة الثانية في عام ٦٠هـ وأصبح أبو مهاجر دينار تحت قيادته ، سار عقبة بقواته غربا حتى وصل المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) ثم صعد على ربوة وهتف،،

(يارب ، لولا هذا البحر لمضيت مجاهدا في سبيلك ، ولو كنت أعلم بعده أرضا وناسا لخضته إليهم) ، وفي أثناء عودته إلي القيروان فاجأه (كسيلة) قائد البربر بجيش كبير وحلفاؤه من البيزنطيين ، واشتبكوا معه بالقرب من تهودة (في الجزائر) واستشهد في هذه المعركة عقبة وأبو المهاجر دينار وكان ذلك عام ٦٤هـ وعدد من جنودهما...

تولى زهير ولاية إفريقيا خلفا لعقبة وتمكن من القضاء على كسيلة وحلفائه وخلال عودته دارت بينه وبين البيزنطيين معركة عند مدينة درنة الليبية فاستشهد فيها زهير...

أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان جيشا عظيما بقيادة حسان بن العمان عام ٧٤هـ وتمكن من تدمير قاعدة الروم في قرطاجة ، وقضى على ثورة البربر وطرد الروم نهائيا من شمالي إفريقيا وتفرغ لتنظيم بلاد المغرب ، ونشر الإسلام بين السكان فأقبل عليه البربر بحماس شديد وعين لهم الفقهاء لتعليمهم أصول الدين واللغة العربية وانخرط كثير منهم في

الجيش فشاركوا في فتح الأندلس كما دون الدواوين ونظم الخراج وبنى مدينة تونس الحالية وأنشأ فيها دارا لصناعة السفن ومسجدا كبيرا ومقرا للإدارة ، وثكنات الجند ...

خامسا- فتح الأندلس:

الأندلس اسم أطلقه المسلمون على شبه جزيرة أيبيريا (أسبانيا والبرتغال) وكانت قبل الإسلام خاضعة لحكم القوط الذين وفدوا من شمال غرب أوروبا في القرن السادس الميلادي وعاثوا فسادا في البلاد ؛ فامتلكوا الأراضي الزراعية الخصبة ، واحتكروا المناصب العليا ، وفرضوا الضرائب الباهظة على السكان ،

وكان موسى بن نصير قد تولى ولاية إفريقيا عام ٨٥هـ وحدث أن استولى لذريق أو (رودريك) أحد كبار القادة القوط على الحكم وقتل ملك البلاد وكان يدعى(غيطشه) وتغلب على ابنه(وقله) فانقسم الشعب بين مؤيد ومعارض للملك الجديد ، ولجأ وقله إلي (جوليان) حاكم سبته الذي كان يضمر كرها شديدا للذريق ،،

اتصل جوليان بموسى بن نصير يحثه على فتح الأندلس ووعده بتقديم المساعدة فاستأذن موسى الخليفة الوليد بن عبد الملك فوافقه .

قاد جيوش المسلمين الزاحفة على أسبانيا ثلاثة من الأبطال ، هم : طريف بن مالك ، وطارق بن زياد ، وموسى بن نصير

وكان طريف أول هؤلاء الأبطال وكان زحفه بمثابة كشف واستطلاع فقد عبر المضيق على رأس خمسمائة من الخيالة والرجالة تحملهم سفن جوليان وكان ذلك عام ٩١هـ ولم يجد طريف مقاومة تذكر وما تزال الجزيرة التي غزاها تحمل اسمه حتى اليوم . ودفع هذا النجاح بموسى بن نصير إلي عمل حاسم اختار له طارق بن زياد الذي عبر المضيق ونزل بجيشه على جبل يعرف باسمه حتى اليوم وألقى خطابه الشهير (أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر) وعرف لذريق بغزو المسلمين فأعد جيشا بلغ مئة ألف مقاتل وقاده بنفسه،،

تقابل الجيشان في وادي لكة (في رمضان عام ٩٢هـ) واستطاع طارق بجيشه المؤمن أن يفرق ويمزق جيش العدو . واختفى لذريق ولم يعد يعثر له على أثر ، بينما أخذ طارق يفتح المدن ويبسط سلطانه عليها فاستولى على قرطبة وغرناطة وطليطلة... وفي عام ٩٣هـ قاد موسى جيشا قوامه ثمانية عشرألف جندي لمعاونة طارق وتعزيز حركة الفتح في الأندلس وفتح في طريقه مدنا أهمها ماردة ثم استقر مع طارق في طليطلة واتجها شمالا إلي سرقسطة وفتحاها ومنها تقدم المسلمون في اتجاهات عديدة ، حتى تم لهم فتح الغالبية العظمى من الأندلس عام٩٦هـ.....

سادسا- الجهاد في بلاد الغال(فرنسا)

وصل المسلمون في فتوحاتهم السابقة في الأندلس إلي جبال البرتات (البرانس) على الحدود مع بلاد الغال(فرنسا) ، ثم توالت الحملات

الإسلامية على فرنسا ، وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز اخترق والي الأندلس السمح بن مالك الخولاني جبال البرانس ، ولكنه استشهد في معركة تولوز عام ١٠٢هـ /٧٢١م..

تولى القيادة عبد الرحمن الغافقي ودخل جنوب فرنسا وفتح تولوز وبوردو وحقق انتصارات باهرة واستمر في زحفه حتى وصل بلدة تور فأثار مخاوف سكان أوروبا ، فتجمع معظمهم تحت قيادة شارل مارتل المعروف بالمطرقة من شدة ضربته وجرت معركة(بواتيه) عام ١١٤هـ/٧٣٢م التي عرفت باسم بلاط الشهداء لكثرة شهداء المسلمين وفيها استشهد عبد الرحمن الغافقي . وقد أوقفت تلك المعركة الزحف الإسلامي على أوروبا وحرمت شعوبها من نور الإسلام وعدالته...

سقوط الدولة الأموية :

رغم ما قدمه الأمويون من خدمات جليلة للإسلام ، إلا أنه اجتمعت عليهم عوامل عديدة أدت إلي إضعافهم وسقوط دولتهم ومن هذه العوامل:

*إحلالهم لنظام الوراثة بدلا من الشورى المبدأ الذي اعتمد عليه الخلفاء الراشدين في اختيار الخليفة ، مما أدى إلي تذمر المسلمين وقيام فئات منهم بالثورة ضدهم.

* نظام ولاية العهد حيث قام بعض خلفاء بني أمية باختيار اثنين من أبنائه أو إخوانه لولاية العهد مما أورث البيت الأموي الحقد والبغضاء والتنازع وأشعل نار العصبية القبلية التي حاربها الإسلام .

* قيام الثورات ضد الأمويين مثل ثورات الخوارج في العرق وفارس وثورة عبد الله بن الزبير ومقرها مكة ووجدت لها المؤيدين في أهل الحجاز ومصر والعراق ، وثورات الشيعة التي لم تهدأ طوال عهد الأمويين.. واستنزفت هذه الثورات الكثير من الأنفس والوقت والجهد والمال ..

* دعوة العباسيين التي ظهرت أواخر العصر الأموى ، وخططت للقضاء على الحكم الأموي وتعاونت مع العلويين والفئات الناقمة على الأمويين ، ونجحت في ذلك وانتصرت على آخر خلفاء بني أمية مروان الثاني في معركة الزاب عام ١٣٢هـ الذي لاحقه العباسيين حتى قتلوه في مصر ، لتسقط الدولة الأموية وتبدأ دولة جديدة هى الدولة العباسية.

قتيبة بن مسلم

هو أبو حفص قتيبة بن أبي صالح مسلم بن عمرو بن الحصن بن ربيعة بن خالد بن أسيد الخير بن قضاعي بن هلال بن سلامة بن ثعلبة بن وائل بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، الباهلي أمير خراسان زمن عبد الملك بن مروان من جهة الحجاج بن يوسف الثقفي لأنه كان أمير العراقين، وكل من كان يليهما كانت خراسان مضافة إليه، وأقام بها ثلاث عشرة سنة، وكان من قبلها على الري وتولى خراسان بعد يزيد ابن المهلب بن أبي صفرة وفي ترجمة يزيد شرح ذلك وهو الذي افتتح خوارزم وسمرقند وبخارى، وقد كانوا كفروا.

هو ذلك البطل المغوار والقائد العظيم ميمون النقيبة وكبير مجاهدى الدولة الأموية بلا منازع وناشر الإسلام فى أقصى ربوع الأرض من ناحية الشرق وصاحب الراية التى لا تجاوز آى فاتح بعده مكانها، ومدخل الإسلام إلى بلاد الصين، صاحب الشخصية الجهادية الساحرة التى بهرت كل من رآه، وأسرت نفس كل من سمع أخباره، من أسلم على يديه الألاف من الكفرة حباً فيه وفى جهاده وشجاعته الذى انتصر على كل اعدائه، وحطم معابد الشرك والأوثان

دين الله أفواجاً حباً فى بطولات وشجاعة هذا البطل الجسور الذى رأى فيه الأتراك الرمز الحقيقى للفضيلة والشجاعة والرجولة، ومعانى الإسلام النقية المتجسدة فى شخصه، وكان دخول هؤلاء فى دين الإسلام من أكبر الفتوحات والانتصارات التى حققها المسلمون وكان لهم أعظم الأدوار فى نشر الدعوة فى قارة آسيا كلها، فكان من قبائل الأتراك الغزية مثلاً السلاجقة العظام والعثمانيون الأبطال والأوزبك الشجعان والمماليك قادة العالم وهؤلاء أدوا خدمات جليلة لا تنسى فى خدمة الإسلام، ومن الأتراك القوقازيين ظهر أبطال داغستان والشيشان، ومن الأتراك الهياطلة ظهر الغزنويون والغوريون فاتحو الهند الكبار وهكذا كان ذلك كله على يد من ألقى البذرة الأولى "قتيبة بن مسلم" .

خصال الأسد الجسور

لقد كانت شخصية "قتيبة بن مسلم" مثالاً حياً وتجسيداً حقيقياً لقيم الإسلام وتعاليمه، وجمع من الصفات والخصال التى رشحته لأن يكون عملاق الجهاد الاسلامى فى هذه الفترة من الزمان حتى أن مجرد ذكر اسمه كان يلقى الرعب فى قلوب أعدائه، والطاعة الكاملة والمهابة الشديدة فى نفوس أتباعه، ومواقفة البطولية، وأيام جهاده خير دليل على ذلك .

أولاً- غيرته على الإسلام والمسلمين

عندما فتح "قتيبة"مدينة "بيكند" وكانت تابعة "لبخارى"، صالحه أهل المدينة فجعل عليهم والياً من المسلمين وترك بها مجموعة من المسلمين لتعليم الناس الإسلام، فلما رحل عنهم نقضوا العهد وقتلوا الوالى المسلم وجدعوا أنوف من كان بالمدينة من المسلمين ومثلوا بجثثهم، فلما وصلت الأخبار إلى قتيبة وكان محاصراً لمدينة أخرى.

ترك حصارها وعاد مسرعاً إلى "بيكند" وحاصرها شهراً وهدم سورها فحاول أهل المدينة الصلح من جديد ولكنه أبى، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وأصر على فتحها بالسيف حتى تم له ذلك، فقتل المقاتلين وسبى الذرية وغنم الأموال، ليرتدع الكفار والخارجون عن مثلها فلا يعودوا لنقض ذمة المسلمين وعهدهم، وليعلموا أن قطرة دم واحدة من مسلم أعز وأغلى من كفار الأرض جميعاً، ومن المواقف الرائعة فى هذا الفتح التأديبى، أن الذى ألب على المسلمين وحرض أهل المدينة على نقض عهدهم، رجل

همة وعزيمة وإيمان راسخ، ذلك لأن قبيلة 'باهلة' التى ينتمى إليها بطلنا العظيم، كانت من القبائل المرزولة والوضيعة عند العرب قبل الإسلام، يدلنا على ذلك الحديث الصحيح عندما سأل الأشعث بن قيس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "يا رسول الله أتتكافأ دماؤنا ؟ قال نعم ، لو قتلت رجلاً من باهلة لقتلتك" والرسول صلى الله عليه وسلم لا يهزأ أو يضحر من باهلة بهذا الحديث ولكن يضرب له المثل بأقرب المعانى والأفكار المتبادرة عن الشرف والوضاعة، فالإسلام جاء فألغى كل هذه الأوهام والعصبيات القبلية المقيتة وجعل ميزان التفاضل بين الخلق التقى والعمل الصالح لا الأهل أو النسب، وبفضل الله ورسوله ودينه ظهرت أمثال شخصية هذا العملاق الجهادى، الذى لولا الإسلام لم يكن له ذكر ولا ظهور ولا أثر .

ثم إنه لما بلغ الحجاج ما فعل قتيبة من الفتوحات والقتل والسبي قال: بعثت قتيبة فتى غزاء فما زدته باعا إلا زادني ذراعا.

فلما مات الوليد في سنة ست وتسعين وتولى الأمر أخوه سليمان بن عبد الملك وكان يكره قتيبة ، فخاف منه قتيبة وخلع بيعة سليمان وخرج عليه وأظهر الخلاف، فلم يوافقه على ذلك أكثر الناس، وكان قتيبة قد عزل وكيع بن حسان بن قيس بن يوسف بن كلب بن عوف بن مالك بن غدانة واسم غدانة أشرس وكنيه وكيع أبو المطرف الغداني عن رياسة بني تميم، فحقد وكيع عليه وسعى في تأليب الجند سرا وتقاعد عن قتيبة متمارضا، ثم خرج عليه وهو بفرغانة فقتله مع أحد عشر من أهله، وذلك في ذي الحجة سنة ست وتسعين للهجرة، وقيل سنة سبع وتسعين. ومولده سنة تسع

وأربعين، وتولى خراسان تسع سنين وسبعة أشهر، هكذا قال السلامي في تاريخ ولاة خراسان وهو خلاف ما قيل أولا وقال الطبري: تولى خراسان سنة ست وثمانين وفي قتله يقول جرير:

ندمتم على قتل الأغر ابن مسلم وأنتم إذا لاقيتم الله أندم

لقد كنتم من غزوة في غنيمة وأنتم لمن لاقيتم اليوم مغنم

على أنه أفضى إلى حور جنة وتطبق بالبلوى عليكم جهنم

وقتل أبوه مسلم بن عمرو مع مصعب بن الزبير في سنة اثنتين وسبعين للهجرة.

وقتيبة جد أبي عمرو سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم، وكان سعيد المذكور سيدا كبيرا ممدحا، وفيه يقول عبد الصمد بن المعذل يرثيه:

كم يتيم نعشته بعد يتم وفقير أغنيته بعد عدم

كلما عضت النوائب نادى رضي الله عن سعيد بن سلم

وتولى سعيد أرمينية والموصل والسند وطبرستان وسجستان والجزيرة، وتوفي سنة سبع عشرة ومائتين، ومن أخباره أنه قال: لما كنت واليا بأرمينية أتاني أبو دهمان الغلابي فقعد على بابي أياما فلما وصل إلي جلس قدامي بين السماطين، وقال: والله إني لأعرف أقواما لو علموا أن سف التراب يقيم أود أصلابهم لجعلوه مسكة لأرماقهم إيثارا للتنزه عن

عيش رقيق الحواشي، أما والله إني لبعيد الوثبة، بطيء العطفة، إنـــه والله ما يثنيني عليك إلا مثل ما يصرفك عني، ولأن أكون مقلا مقربا أحب إلـــي من أن أكون مكثرا مبعدا، والله ما نسأل عملا لا نضبطه، ولا مالا إلا ونحن أكثر منه، إن هذا الأمر الذي صار في يديك قد كان في يد غيرك فأمـــسكوا والله حديثا إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فتحبب إلى عباد الله بحسن البشر ولين الحجاب، فإن حب عباد الله موصول بحب الله، وهم شهداء الله علـــى خلقه، ورقباء على من اعوج عن سبيله، والسلام .

ولما مات ولده عمرو بن سعيد المذكو، رثاه أبو عمرو أشـــجع بـــن عمرو السلمي الرقي نزيل البصرة الشاعر المشهور بقوله:

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق ... ولا مفـــرب إلا لـــه فـــيه مـــادح

وما كنت أدري ما فواضـــل كـــفـــه ... على الناس حتى غيبته الصـــفـــائح

وأصبح في لحد من الأرض ضـــيق ... وكانت به حيا تضيق الصحـــاصـــح

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض ... فحسبك مني ما تجن الـــجـــوانـــح

فما أنا من رزء وإن جـــل جـــازع ... ولا بسرور بعـــد مـــوتـــك فـــارح

كأن لم يمت حي ســـواك ولـــم يقـــم ... على أحـــد إلا عـــلـــيك الـــنـــوائح

لئن حسنت فيك المرائي وذكـــرهـــا ... لقد حسنت من قبل فيك الـــمـــدائح

وهذه المرثية من محاسن المراثي، وهي في كتاب الحماسة والبيت الأخير منها مثل قول مطيع بن إياس في يحيى بن زياد من جملة أبيات:

يا خير من يحسن البكاء له ال يوم ومن كان أمس للمدح

وهذه الأبيات في الحماسة في باب المراثي.

وأخباره كثيرة ، وقد تقدم الكلام على الباهلي في ترجمة الأصمعي، وأن هذه النسبة إلى أي شيء هي، وكانت العرب تنفر من الانتساب إلى هذه القبيلة حتى قال الشاعر:

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهله

وقال الآخر:

ولو قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم هذا النسب

وقيل لأبي عبيدة: يقال إن الأصمعي دعي في نسبه إلى باهلة، فقال: هذا ما يمكن، فقيل: ولم؟ فقال: لأن الناس إذا كانوا من باهلة تبرأوا منها، فكيف يجيء من ليس منها وينتسب إليها؟

وقال قتيبة بن مسلم المذكور لهبيرة بن مسروح: أي رجل أنت لو كان أخوالك من غير سلول؟ فلو بادلت بهم، فقال: أصلح الله الأمير، بادل بهم من شئت من العرب وجنبني باهلة.

ويحكى أن أعرابيا لقي شخصا في الطريق فسأله: ممن أنت؟ فقال: من باهلة، فرثى له الأعرابي، فقال ذلك الشخص: وأزيدك أني لست من صميمهم، ولكن من مواليهم، فأقبل الأعرابي عليه يقبل يديه ورجليه، فقال له: ولم ذاك؟ فقال: لأن الله تبارك وتعالى ما ابتلاك بهذه الرزية في الدنيا إلا ويعوضك الجنة في الآخرة. وقيل لبعضهم: أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلي؟ فقال: نعم، بشرط ألا يعلم أهل الجنة أني باهلي، والأخبار في ذلك كثيرة، رحمهم الله أجمعين.

وسئل حسين بن بكر الكلابي النسابة عن السبب في اتضاع باهلة وغني عند العرب، فقال: لقد كان بينهما غناء وشرف، ولم يضعهما إلا إشراف أخويهما فزارة وذبيان عليهما بالمآثر، فدنؤا بالإضافة إليهما ذكر ذلك الوزير أبو القاسم المغرْبي في كتاب أدب الخواص وقد تقدم الكلام على قتيبة في ترجمة عبد الله بن مسلم بن قتيبة.

رحلة مجد قتيبة بن مسلم

بدأت رحلة المجد الجهادى لهذا القائد الفذ منذ ٨٦ هجرية، وذلك عندما ولاه "الحجاج بن يوسف الثقفى" ولاية "خراسان" وهو إقليم شاسع مترامى الأطراف، لم يكن المسلمون قد واصلوا الفتح بعده، وكان "المهلب بن أبى صفرة" والياً على خراسان من عام ٧٨ حتى ٨٦ هجرية، وقد رأى "الحجاج" أن يدفع بدماء شابة جديدة فى قيادة المجاهدين هناك، فلم يجد أفضل من "قتيبة بن مسلم" لهذه المهمة .

سار "قتيبة بن مسلم" على نفس الخطة التى سار عليها آل المهلب، وهى خطة الضربات السريعة القوية المتلاحقة على الأعداء، فلا يترك لهم وقت للتجمع أو التخطيط لرد الهجوم على المسلمين، ولكنه امتاز عن آل المهلب بأنه كان يضع لكل حملة خطة ثابتة لها هدف ووجهة محددة، ثم يوجه كل قوته للوصول إلى هدفه، غير عابىء بالمصاعب أو الأهوال التى ستواجهه، معتمداً على بسالته النادرة وروح القيادة التى امتاز بها وإيمانه العميق بالإسلام .

استراتيجية الفتح الإسلامى :

من ضمن الأباطيل التى يروجها المستشرقون على سيرة الجهاد الإسلامى فى الصدر الأول عدم وجود استراتيجية واضحة للفتوحات الإسلامية، يقول المستشرق "أنتونى نتنج" وهو يجزم بباطله [والحملات بعيدة جداً على أن تكون نتيجة لتدبير مقصود هادىء، إذ يبدو أنها بدأت

كغارات قصد منها أن توجد مخارج جديدة للروح الحربية التى كانت تسود القبائل، والتى خطرعليها أن تشتبك فى معارك أخوية] وهذه شبهة واهية وباطل يرده أحداث التاريخ، ووقائع الفتوحات الإسلامية، وما قام به الأمير "قتيبة بن مسلم" من تقسيم لحملاته الجهادية خير دليل على بطلان هذه الآراء والشبهات .

قام "قتيبة بن مسلم" بتقسيم أعماله لأربع مراحل، حقق فى كل واحدة منها فتح ناحية واسعة فتحاً نهائياً ثبت فيه أقدام المسلمين للأبد :- وهى كالآتى:

المرحلة الأولى :

قام فيها "قتيبة" بحملته على "طخارستان السفلى" فاستعادها وثبت أقدام المسلمين وذلك سنة ٨٦ هجرية، وطخارستان السفلى هى الآن جزء من أفغانستان وباكستان .

المرحلة الثانية :

قاد فيها حملته الكبرى على بخارى فيما بين سنتى٨٧ -٩٠ه هـ ،وخلالها أتم فتح بخارى وما حولها من القرى والحصون، وكانت أهم مدن بلاد ما وراء النهر وأكثفها سكانا وأمنعها حصوناً .

المرحلة الثالثة :

وقد استمرت من سنة ٩١- ٩٣ هـ ، وفيها تمكن "قتيبة" من نشر الإسلام وتثبيته فى وادى نهر جيحون كله، وأتم فتح إقليم "سجستان" فى

إيران الآن، وإقليم خوارزم 'يوجد الآن بين دول إيران وباكستان وأفغانستان'،ووصلت فتوحاته إلى مدينة 'سمرقند' فى قلب آسيا وضمها إلى دولة الإسلام نهائياً .

المرحلة الرابعة:

وامتدت من سنة ٩٤-٩٦ هجرية، وفيها أتم 'قتيبة' فتح حوض نهر سيحون بما فيه من مدن، ثم دخل أرض الصين وأوغل فيها ووصل مدينة 'كاشغر' وجعلها قاعدة إسلامية وكان هذا آخر ما وصلت إليه جيوش الإسلام فى آسيا شرقا ولم يصل أحد من المسلمين أبعد من ذلك قط.

الأمير 'قتيبة' وقبائل الأتراك :

#عندما قام المسلمون الأوائل بحركة الفتح الإسلامى فى شرق المعمورة كان هناك نوعان من الأجناس البشرية، القبائل الساسانية أو الفارسية والقبائل التركية، وكان نهر "المرغاب" هو الحد الفاصل بين هؤلاء وهؤلاء، وقد تم إدخال القبائل الفارسية فى الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين، أما القبائل التركية، فقد كانت أكبر عدداً وأوسع انتشاراً منهم الأتراك الغزية والأتراك القراخطاى والأتراك القوقازيين والأتراك الأيجور والأتراك البلغار والأتراك المغول .

ونستطيع أن نقول أن الأمير 'قتيبة بن مسلم' هو صاحب الفضل الأول بعد الله عز وجل فى إدخال الأتراك شرقى نهر المرغاب وفى بلاد ما وراء النهر فى الإسلام، فقد سحرت شخصيته الجهادية الأتراك ، فدخلوا فى

ميلاد قتيبة :

ولد قتيبة بن مسلم سنة ٤٨ هجرية بأرض العراق، وكان أبوه 'مسلم بن عمرو' من أصحاب 'مصعب بن الزبير' والى العراق من قبل أخيه أميرالمؤمنين 'عبد الله بن الزبير'، وقتل معه فى حربه ضد 'عبد الملك بن مروان' سنة ٧٢ هجرية.

نشأة قتيبة :

وقد نشأ 'قتيبة' على ظهور الخيل رفيقاً للسيف والرمح، محباً للجهاد، وكانت منطقة العراق مشهورة بكثرة الفتن والثورات، لذلك عمل كل ولاة العراق على شغل أهلها بالجهاد فى سبيل الله لاستغلال طاقاتهم الثورية فى خدمة الإسلام ونشر الدعوة، لذلك كانت أرض العراق هى قاعدة الانطلاق للحملات الجهادية على الجبهة الشرقية للدولة الإسلامية، وقد اشترك 'قتيبة' فى هذه الحملات منذ شبابه المبكر، وأبدى شجاعة فائقة وموهبة قيادية فذة، لفتت إليه الأنظار خاصة من القائد العظيم 'المهلب بن أبى صفرة' وكان خبيراً فى معرفة الأبطال ومعادن الرجال فتفرس فيه أنه سيكون من أعظم أبطال الإسلام، فأوصى به لوالى العراق الشهير 'الحجاج بن يوسف الثقفى' الذى كان يحب الأبطال والشجعان، فانتدبه لبعض المهام ليختبره بها ويعلم مدى صحة ترشيح 'المهلب' له، وهل سيصلح للمهمة العظيمة التى سيؤهله إليها بعد ذلك أم لا؟

كان شهما مقداما نجيبا، وكان أبوه مسلم كبير القدر عند يزيد بن معاوية، وهو صاحب الحرون، وكان الحرون من الفحول المشاهير يضرب به المثل. ثم فتح قتيبة فرغانة في سنة خمس وتسعين في أواخر أيام الوليد بن عبد الملك وقال أهل التاريخ: بلغ قتيبة بن مسلم في غزو الترك والتوغل في بلاد ما وراء النهر وافتتاح القلاع واستباحة البلاد وأخذ الأموال وقتل الفتاك ما لم يبلغه المهلب بن أبي صفرة ولا غيره، حتى إنه فتح بلاد خوارزم وسمرقند في عام واحد، ولما فتح هاتين المدينتين الجليلتين عادت السغد وحملت الاتاوة. ودعا قتيبة لما تمت له هذه الأحوال نهار بن توسعة شاعر المهلب بن أبي صفرة وبنيه، وقال له: أين قولك في المهلب لما مات:

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب

أفغزو هذا يا نهار؟ قال: لا بل هذا حشر. ثم قال نهار وأنا القائل:

ولا كان مذ كنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم

أعم لأهل الترك قتلا بسيفه وأكثر فينا مقسما بعد مقسم

لم يفر أو يهزم فى معركة قط، صاحب الراية المباركة على الإسلام والمسلمين الأمير أبو حفص "قتيبة بن مسلم بن عمر بن حصين بن ربيعة الباهلى" الذى أثبت بكل قوة ويقين كيف يكون الإنسان عصامياً وليس عظامياً، وأن وضاعة الأصل لا تؤثر بحال على صاحبها طالما كان صاحب

كافر من أهل المدينة أعور العين، وقد وقع هذا الرجل أسيراً بيد المسلمين، فقال لقتيبة [أنا أفتدى نفسى بخمسة آلاف ثوب حريرى قيمتها ألف ألف] فأشار أمراء الجيش على قتيبة أن يقبل ذلك منه، فقال "قتيبة" [لا والله لا أروع بك مسلماً مرة أخرى] ثم أمر به فضربت عنقه، وهذا يوضح مدى غيرة الأسد "قتيبة" على دماء الإسلام والمسلمين وحرصه الشديد على أرواحهم وتأديبه القوى لمن يتعدى على حرماتهم، كما أرسل برسالة واضحة بأن المسلم لا يبغى بجهاده وقتاله سوى وجه الله عز وجل ونصرة الدين ، ولا يريد من الدنيا مالاً ولا متاعاً لأنه وبمنتهى البساطة قد آثر الآخرة على الأولى، واشترى الجنة بالدنيا .

ثانياً- خبرته بالرجال :

كان الأسد أبو حفص "قتيبة بن مسلم" من نوعية القادة الذين لا يسع اى جندى يعمل تحت رايته إلا أن يطيعه، ولا يسع آى خليفة أو والى ، إلا أن يجعله قائداً على الجيوش، فهو قائد بالفطرة يعرف كيف يوجه رجاله نحو تنفيذ أشق المهام التى يستحيل على غيرهم تنفيذها، فهو خبير بقيادة الرجال وتوجيه النفوس والطبائع البشرية، فلقد علم أن المسلمين يقاتلون وهم بعيدون عن أرضهم وعيالهم وتشتاق قلوبهم لديارهم وأهليهم، فاستأذن "الحجاج بن يوسف" والى العراق فى أن يوزع أموال الغنائم على المجاهدين حتى تقوى قلوبهم ونفوسهم على القتال ضد عدوهم الكافر، فوافق الحجاج على ذلك، حتى كثرت الأموال فى أيدى المجاهدين ، وصاروا قوة عظيمة لا تقهر بأرض ما وراء النهر .

كانت خبرته بالرجال تمتد إلى أعدائه، فيعرف كيف يحاربهم ومتى يهادنهم ومتى يشتد عليهم ؟ وهكذا لا يستطيع أن يخدعه أحد أبداً، ولقد حاول أهل 'بيكند' أن يخدعوه بواسطة عميل مزدوج كان يعمل لحساب 'قتيبة' أولاً ثم استمالوه أهل البلد ليفك الحصار عنهم، وكان اسم هذا العميل 'تندر' فحاول خداع 'قتيبة' وإيهامه بأن 'الحجاج' والى العراق قد عزل من منصبه وأن الأسلم أن يفك الحصار ويعود مسرعاً للعراق، ففطن 'قتيبة' للخدعة وقتل العميل الجاسوس، ثم اشتد فى حصار البلد حتى فتحها بإذن الله .

وكان 'قتيبة' يعرف كيف يختار رجاله، ويعرف كيف يشجعهم ويحمسهم فى القتال، خاصة فى المواقف الصعبة، ففى أثناء فتح 'بخارى' اشتد الكفار فى القتال ضد المسلمين حتى انهزمت بعض قبائل العرب مثل 'الأزد' .

فانتدب 'قتيبة' قبيلة بنى تميم لمهمة فى غاية الصعوبة وهى الأصطدام مع معسكر الكفار الكبير المطل على نهر المدينة وكان المسلمون قد أحجموا على هذه المهمة المستحيلة، فأحسن 'قتيبة' الأختيار عندما اختار بنى تميم لأنهم أشجع العرب فى قتال الأتراك، ثم نادى فى باقى جيشه [من جاء برأس كافر فله مائة دينار] فاشتد الناس فى قتال الكفار حتى فتحت المدينة وكافأ 'قتيبة'بنى تميم أعظم مكافأة على شجاعتهم وبطولتهم فى القتال .

★★ فلا عجب أن تأسر شخصيته قلوب الكفار قبل المسلمي ، ويدخل الأتراك فى دين الله أفواجاً بل يقاتلوا بنى جلدتهم مع قتيبة والمسلمين .

ثالثاً – إيمانه بالله وتوكله عليه :

كانت دولة بنى أمية معنية طول مدتها بشأن الجهاد فى سبيل الله ونشر الإسلام شرقاً وغرباً، فلم يأتى عليها مدة إلا وراية الجهاد مرفوعة وخفاقة لذلك فقد كان خلفاء بنى أمية معنيين بإختيار القادة الأكفاء الموصوفين بالديانة والشجاعة، كان "قتيبة" واحد من هؤلاء الذين تغلغل الإيمان بالله عز وجل فى قلوبهم وتوكلوا عليه بالكلية ، وهذا يتضح من إقدامه على القتال ضد جيوش الكفار وإقتحام مدنهم وقلاعهم على الرغم من التفاوت الكبير والضخم بين القوتين، ذلك لأنه كان متوكل على الله عز وجل وحده، معتمداً عليه لا على قوة أو متاع ، حتى أن ملك الصين وكان من أكبر من ملوك الدنيا يخاف منه ويؤثر مهادنته ويرسل إليه بتراب بلاده وأربعة من أولاده وهدايا مهولة من أجل أن يبر قسم قتيبة أن يطأ أرض الصين ويفتحها، فأى عز هذا ؟! وأى قوة إيمانية تلك ؟؟ التى تهزهز عروش ملوك الأرض .

ومن مواقفه الإيمانية الرائعة التى كانت سبباً لإسلام الكثير من قبائل الأتراك أنه لما فتح مدينة "سمرقند" وكانت قاعدة ملك الأتراك الهياطلة، اشترط "قتيبة" على أهل سمرقند شرطين :

أولهما : أن يبنى فى المدينة مسجداً لله عز وجل ويضع فيه منبراً ويصلى فيه ويخطب على المنبر .

ثانيها : أن يحطم أصنام المدينة ومعابدها ، وبالفعل نفذ الشرطان .

فلما أخذ الأصنام والأوثان ألقيت بعضها فوق بعض حتى صارت مثل الجبل الكبير، ثم أمر بإحراقها، فتصارخ أهل المدينة وبكوا، ثم قالوا له [إن فيها أصناماً قديمة من أحرقها هلك فى الحال] فقال القائد المؤمن "قتيبة" [أنا أحرقها بيدى فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون] ثم قام إليها وهو يكبر الله عز وجل وألقى فيها النار حتى احترقت كلها .

رابعاً – صبره وشدته فى المواقف العصيبة :

القائد الحقيقى هو الذى يستطيع أن يصبر فى الشدائد بل ويتخذ القرار الصائب وسط سحائب الشدة والمخاطر، ولقد تعرض الأمير "قتيبة" لعدة مواقف عصيبة صمد أمامها كالطود العظيم، وأظهر شجاعة وثباتاً لا يعلم مثله إلا من الصحابة رضوان الله عليهم، من هذه المواقف أنه بعد أن فتح مدينة "بخارى" فر منها ملكها "وردان شاه" وراسل ملوك الترك الكفرة الذين كانوا من قبل صالحوا "قتيبة" فأجابوه ونقضوا الصلح مع "قتيبة" واتفقوا عليه وحشدوا أعداداً هائلة من الكفار، وأقبلوا فى جيوش جرارة فى تحالف وثنى على أهل الإيمان، ووصلت الأخبار للأمير "قتيبة "، فأعد جنوده البواسل بعدما حرضهم وشجعهم على الجهاد والشهادة، فكشر الأسد عن أنيابه ووثب هو وجنوده على جيوش الكفار فى معركة رهيبة،

أبدى فيها المسلمون شجاعة نادرة وبسالة هائلة، فانتصروا على القوم الكافرين وقتل منهم عشرات الألاف، وحتى يردع الكافرين عن مثلها، صلبهم على مسافة أربعة فرسخ فى نظام واحد، الرجل بجوار الرجل، وذلك فى كل اتجاه من الجهات الأربعة، فلم يقم للكافرين بعدها قائمة .

وبالجملة كان هذا البطل من أعظم الفاتحين فى الإسلام وصاحب شخصية آسرة، كانت سبباً فى إسلام أمم بأكملها من الأتراك، وكان علم الجهاد المقدم فى الشرق حتى أدخل الإسلام لأرض الصين النائية، ولا يعلم أحد بعده قد وصل برایاته إلى ما وصل إليه من بلاد كاشغر بالصين، فرحمه الله رحمة واسعة وغفر له زلته التى راح ضحيتها، ويكفى لنعرف مدى شدة هيبة "قتيبة" فى نفوس أعدائه، شهادة أحد ملوك الأتراك وهو "الأصبهند" عندما سأل عن قتيبة بن مسلم ويزيد بن المهلب وهو من ولى العراق بعده أيهما كان أعظم عندكم وأهيب ؟ فقال : لوكان قتيبة بأقصى حجر فى الغرب مكبلاً ويزيد معنا فى بلادنا وال علينا لكان قتيبة أهيب فى صدورنا وأعظم من يزيد .

خلافة الوليد بن عبد الملك
وولاية قتيبة

وعندما بويع للوليد بن عبد الملك بالخلافة، فذكر أنه لما دفن أباه وانصرف عن قبره. دخل المسجد فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس، فخطب فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! والله المستعان بمصيبتا بوت أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا. فكان أول من قام لبيعته عبد الله بن هشام السولي، فإنه قام وهو يقول:

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أراد الملحدون عوقها

عنك ويأبى الله إلا سوقها إليك حتى قلدوك طوقها

فبايعه، ثم تتابع الناس على البيعة. وأما الواقدي فإنه ذكر أن الوليد لما رجع من دفن أبيه، ودفن خارج باب الجابية، لم يدخل منزله حتى صعد على منبر دمشق، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، إنه لا مقدم لما أخر الله، ولا مؤخر لما قدم الله، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت. وقد صار إلى منازل الأبرار ولي هذه الأمة الذي يحق عليه لله من الشدة على المريب، واللين لأهل الحق والفضل، وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه؛ من حج هذا البيت، وغزو هذه الثغور، وشن هذه الغارة على أعداء الله، فلم يكن عاجزاً ولم يكن مفرطاً. أيها الناس، عليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الفرد. أيها الناس، من أبدى لنا ذات نفسه

ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه. ثم نزل، فنظر إلى ما كان من دواب الخلافة فحازه، وكان جباراً عنيداً.

ولاية قتيبة بن مسلم على خراسان من قبل الحجاج :

وفي هذه السنة ، قدم قتيبة بن مسلم خراسان والياً عليها من قبل الحجاج، فذكر علي بن محمد أن كليب بن خلف، أخبره عن طفيل ابن مرداس العمي والحسن بن رشيد، عن سليمان بن كثير العمي.

قال: أخبرني عمي قال: رأيت قتيبة بن مسلم حين قدم خراسان في سنة ست وثمانين، فقدم والمفضل يعرض الجند، وهو يريد أن يغزو أخرون وشومان، فخطب الناس قتيبة، وحثهم على الجهاد.

وقال: إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه، ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة، والعدو وقماً، ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق، وكتاب ناطق. فقال: " هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ".

ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب، وأعظم الذخر عنده فقال: " ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله " إلى قوله: " أحسن ما كانوا يعملون ". ثم أخبر عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق، فقال " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ". فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم، وإياي والهوينى. ذكر ما كان من أمر قتيبة بخراسان في هذه السنة ثم

عرض قتيبة الجند في السلاح والكراع، وسار واستخلف بمرو على حربها إياس بن عبد الله بن عمرو، وعلى الخراج عثمان بن السعدي.

فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وبعض عظمائهم فساروا معه، فلما قطع النهر تلقاه تيش الأعور ملك الطغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب، فدعاه إلى بلاده، فأتاه وأتى ملك كفتان بهدايا وأموال، ودعا إلى بلاده، فمضى مع بيش إلى الصغانيان، فسلم إليه بلاده، وكان ملك آخرون وشومان قد أساء جوار تيش وغزاه وضيق عليه.

فسار قتيبة إلى أخرون وشومان - وهما من طخارستان، فجاءه غشتاسبان فصالحه على فدية أداها إليه، فقبلها قتيبة ورضي، انصرف إلى مرو، واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم، وتقدم جنده فسبقهم إلى مرو، وفتح صالح بعد رجوع قتيبة باسارا، وكان معه نصر بن سيار فأبلى يومئذ؛ فوهب له قرية تدعى تنجانة.

ثم قدم صالح على قتيبة فاستعمله على الترمذ. قال: واما الباهليون فيقولون: قدم قتيبة خراسان سنة خمس وثمانين فعرض الجند، فكان جميع ما أحصوا من الدروع في جند خراسان ثلثمائة وخمسين درعاً، فغزا أخرون وشومان، ثم قفل فركب السفن فانحدر إلى آمل، وخلف الجند، فأخذوا طرق بلخ إلى مرو، وبلغ الحجاج، فكتب إليه يلومه ويعجز رأيه في تخليفه الجند، وكتب إليه: إذا غزوت فكن في مقدم الناس، وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقتهم. وقد قيل: إن قتيبة أقام قبل أن يقطع النهر في هذه السنة على بلخ، لأن بعضها كان منتقداً عليه .

وقد ناصب المسلمين، فحارب أهلها، فكان ممن سبى امرأة برمك، أبا خالد بن برمك – وكان برمك على النوبهار – فسارت لعبد الله بن مسلم الذي يقال له الفقير، أخى قتيبة بن مسلم، فوقع عليها، وكان به شيء من الجذام. ثم إن أهل بلخ صالحوا من غد اليوم الذي حاربهم قتيبة، فأمر قتيبة برد السبى، فقالت امرأة برمك لعبد الله بن مسلم: يا تازي، إني قد علقت منك.

وحضرت عبد الله بن مسلم الوفاة، فأوصى أن يلحق به ما في بطنها، وردت إلى برمك، فذكر أن ولد عبد الله بن مسلم جاؤوا أيام المهدي حين قدم الري إلى خالد، فادعوه، فقال لهم مسلم بن قتيبة: إنه لا بد لكم إن استلحقتموه ففعل من أن تزوجوه، فتركوه وأعرضوا عن دعواهم. وكان برمك طبيباً، فداوى بعد ذلك مسلمة من علة كانت به.

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم. وفيها حبس الحجاج بن يوسف يزيد بن المهلب، وعزل حبيب بن المهلب عن كرمان، وعبد الملك بن المهلب عن شرطته. وحج بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل المخزومي.

كذلك قال أحمد بن ثابت، عمن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال الواقدي. وكان الأمير على العراق كله والمشرق كله الحجاج بن يوسف وعلى الصلة بالكوفة المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل ، وعلى الحرب بها من قبل الحجاج زياد بن جرير بن عبد الله، وعلى البصرة أيوب بن الحكم ، وعلى خراسان قتيبة بن مسلم.

قتيبة و الانتصار علي الخوارج

الرجل موقف:

وعند المواقف الصعبة تظهر معادن الرجال ..وكان قتيبة بن مسلم الباهلي طوال حياته رجل المواقف الصعبة.. انه لايسكت عن الحق لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس ومن هذه الشجاعة النادرة قدرة الحجاج حتي عندما كان يواجهه بكلمة الحق. كانت معارك الأمويين ضد الخوارج من أكثر المعارك شراسة، فقد كان الخوارج شديدي الإيمان بقضيتهم، حتي أنهم كانوا يقاتلون بأعداد صغيرة الجيوش الأكبر منهم عددا ، وينتصرون عليهم في العديد من المعارك.

وذات يوم احتار الحجاج بن يوسف الثقفي أمام شجاعتهم، وكان هناك رجل من الخوارج شديد البأس، وكان يخشاه الحجاج، وامرأته المحاربة الشجاعة الشرسة (غزالة) .

تقول عنها صوفي عبدالله في كتابها (نساء محاربات) '... ولكن أبرز مثل في تاريخ المرأة المحاربة المقاتلة فعلا كما يقاتل الرجال بسلاحهم وعراقتهم وتحديهم للأقران والأبطال، فهي ولاشك "غزالة" الخارجة زوج شبيب بن يزيد أمير الخوارج المشهور بمواقعه مع جيوش الحجاج بن يوسف علي عهد عبدالملك بن مروان، حتي قيل أنه قتل للحجاج خمسة قواد وهزم له عشرين جيشا، وهو علي رأس فئة قليلة قيل انها لاتتجاوز في أغلب الأحيان تسعين رجلا.

وقد اشتهرت زوجه غزالة باشتراكها معه في الحروب، وفي التبصير بمعتقدهم في الدين، فهي تخطب علي المنابر، وتخوض المعارك، وتتحدي الكماة للمبارزة كما يتبارز الأقران، حتي قيل أنها دعت الحجاج في بعض المواقع أن يبرز إليها بعد أن جندلت من فرسانه العدد العديد، فأبي وخاف، فعيره عمران بن قحطان بتلك الأبيات اللاذعة التي تقطر تهكما وزراية:

أسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلي غزالة في الوغي؟ بل كان قلبك في جناحي طائر!!

وتقول صوفي عبدالله أيضا:

والظاهر أن غرابة هذه الأفعال من امرأة حجبت شيئا ما فعالا لاتقل عنها غرابة أتاها زوجها شبيب، فما خرجت غزالة إلا بخروجه، وما حاربت إلا شدا لأزره، وقصاري الأمر أن (شنا قد وافق طبقه) .

فنظرة إلي صورة ذلك الرجل تطلعنا علي عملاق جبار يعز ضريبه بين أهل الفتوة والعراقة.. فهو قوي في كل شيء، حتي قيل أنه كان لايحارب بسيف، بل بقضيب من الحديد قيل انه كان يزن ثمانين رطلا، وأنه كان يعد به القتلي بعد انتهاء المعارك التي يكسبها! أما صوته فكان شيئا مهولا: إذا صاح في جنبات الجيش لم يلو فيه أحد علي أحد، حتي قال فيه الشاعر:

اذا صاح يوما حسبت الصخر منحدرا والريح عاصفة والموج يلتطم

فهو رجل من جبابرة الخلق وعتاتهم، له امرأة علي غراره، قيل أنها كانت فقيهة أيضا وخطيبة، فهي معتزة بجبروتها، مزهوة بجبروت رجلها."

احتار الحجاج في أمر هذا الرجل من الخوارج وزوجته غزالة، وهنا تتوقف عند الحجاج الذي كان يخشي مواجهة هذا الرجل-شبيب وزوجته- كما روي الطبري في تاريخه:

أنه لما فض شبيب الخارجي كتائب الحجاج وكاد يقلبه علي أمره، استدعي الحجاج بعض الرجال البارزين في العراق ليستشيرهم في الموقف، ويبادلهم الرأي .

وقال لهم عن شبيب: "لقد تبجح هذا الرجل بحبوحتكم، ودخل حريمكم، وقتل مقاتلتكم فأشيروا علي."فأطرقوا جميعا.. ولكن قتيبة بن مسلم الباهلي تقدمهم .

وخاطب الحجاج قائلا":إن الأمير والله ما راقب الله، ولا حفظ أمير المؤمنين، ولانصح للرعية."

وغضب الحجاج وقال: ومن المتكلم؟ فأعاد قتيبة كلامه."

وربما كان هذا هو الدافع الذي دفع الحجاج للثقة به، ومعرفته عن قرب، واعترافه بشجاعته ؛ فهو يطالب الحجاج بن يوسف بمواصلة قتال الخوارج، الذي بلغ من قوتهم وشجاعتهم كما يروي الرواة، أن امرأة شبيب الخارجي هذه، والتي قيل أن الحجاج خشي منازلتها عندما طلبت منه ذلك، أن هذه المرأة كانت قد نذرت نذرا وهي أن تصلي في مسجد الكوفة، أي وسط حشود الحجاج وأنها صلت بالمسجد، وقرأت في الركعة الأولي سورة البقرة، وفي الثانية سورة آل عمران ، أي أنها استغرقت كثيرا جدا في صلاتها، وهذا يعني كما كانت مطمئنة وهي تصلي، لاتخشي الحجاج ولا جيش الحجاج، وأدت نذرها، ورجعت إلي حيث يوجد شبيب زوجها دون خوف ولا وجل، ودون أن يتعرض لها أحد!!

في هذا الجو الملبد بالغيوم، وخوف الحجاج من منازلة هؤلاء الخوارج، طالبه قتيبة بمواصلة الحرب ضد هؤلاء الخارجين عن طاعة الدولة.

واشترك معه في القتال حتي انتصر علي الخوارج، ومن هنا كانت الثقة الكبيرة به، وبقدراته وبشجاعته، ودهائه، كما أنه عرف عن قتيبة أيضا أنه كان خطيبا مفوها، يجذب إليه عقول وقلوب مستمعيه، ومن هنا أصبح قريبا من قلب وعقل الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي اختاره ليكون حاكما علي خراسان.

ذهب قتيبة بن مسلم إلي خراسان، وتطلعت نفسه إلي نشر الاسلام في بلاد ما وراء النهر، وهي بلاد شاسعة الاتساع، وتضم العديد من الممالك، ورسم خطة لتحقيق هذا الأمل الكبير الذي راود الخليفة عثمان بن عفان، فقد أرسل الجيوش إلي هذه الأماكن، ولكن لم تحقق الهدف من هذه الغزوات، ولم تستغربها هذه الجيوش الاسلامية، التي أرادت أن تخضعها تحت راية الاسلام، وتمحو الوثنية المنتشرة في أرجاء هذه البلاد..

ولكن حملات قتيبة لفتح هذه البلاد المسماه بلاد ما وراء النهر.. والتي تضم خمسة ممالك، كانت هي الحملات الحاسمة، فقد كان مصمما علي النصر، وكان مصمما علي ضم هذه الممالك إلي دائرة العالم الاسلامي، وأن يظل الاسلام مرفوع الراية علي تلك البلاد دون إجبار أحد علي الدخول فيه؛ لأن المبدأ الاسلامي المعروف هو: عدم الإكراه فى الدين .

كان الرجل حصيفا وسياسيا ورجل دولة، فبمجرد أن أصبح حاكما علي 'خراسان' قرر أن تكون خراسان هي قاعدة انطلاقه لفتح بلاد ما وراء النهر، وحتي يجعل نفسه في موقف قوي قرر أن يأخذ الثقة من أهالي البلاد، وأن يشارك أبناء خراسان في الحكم، وأن يأخذ بمشورة أصحاب

الرأي فيهم، وكان الحجاج حاكم العراق القوي، يؤيده بكل قوة في خطواته، ويشجعه علي الفتح، ويمده بما يريد من مال ومؤنة وسلاح خاصة بعد أن سمع بمهاراته السياسية، وكيف استطاع أن يقضي علي الخلافات القبلية والعصبية في (خراسان).. حتي أحبه الناس في خراسان.. أحبوا فيه الشجاعة، وحرصه علي القيم والمباديء الاسلامية، وحرصه علي أن يسود العدل بين الناس، كما كان حريصا علي العدل، ورد الظلم عن المظلومين..

وبذلك مهد الرجل العظيم للناس أن يجتمعوا تحت راية الجهاد، تمهيدا لأن يخوض المعارك المختلفة، في هذه الأراضي الشاسعة الاتساع، وذات المسالك الوعرة، والطرق الصعبة، ليضمها تحت راية الاسلام، بل تطلع هذا القائد العظيم أن يصل بجيوش الاسلام إلي حدود الصين، ودخول الصين نفسها لو مكنته الظروف من ذلك.

لقد برزت مواهب هذا الرجل العظيم، وخاصة أنه يمتلك من المواهب الشخصية ما مكنه من صنع ما يشبه المعجزات، وهو يدخل هذه الأراضي الوعرة، والتي كان يجهل تضاريسها بلا شك، وقد وضع نصب عينيه أن الناس في هذه البلاد التي كانت تخضع للوثنية، ما حاربت وتصدت للجيش الاسلامي قبل ذلك في أيام الخليفة عثمان رضي الله عنه إلا لجهلهم بتعاليم الدين الاسلامي، وقيمه ومبادئه، فقد ظنوا أن هؤلاء المسلمين ما جاءوا إلي تلك الأطماع البعيدة إلا طمعا في ثروات هذه البلاد، واستغلال خبراتها، ونهب ما تمتلك من موارد، ومن هنا كانت شدة المقاومة!.. لقد أراد قتيبة أن تكون تعاليم الاسلام ونبي الاسلام، هي التي تمهد للفتح،

فقد حرص علي أن يعرف سكان هذه البلاد عظمة الشريعة الاسلامية، وأن الهدف هو نشر قيم الاسلام وعقائده وشرائعه وليس الهدف هو الغزو من أجل الغزو.

قتيبة والحياة السياسية

فتح الترمذ:

لما قتل عبد الله بن خازم السلمي أتى موسى ابنه ملك الترمذ فأجاره ومن كانوا معه، فأخرجه عنها وغلب عليها رغماً عنه.

فلما قتل صارت في أيدي الولاة ثم انتفض أهلها ففتحها قتيبة بن مسلم.

وهذه الأبيات لنهار بن توسعة في قتيبة وأولها:

كانت خرا سان أرضاً إذا يزيد بها ... فكل باب من الخيرات مفتوح
فاستبدلت قتيباً جعداً أتاملـه ... هبت شمال خريق أسقطت ورقاً
واصفر بالقاع بعد الخضرة الشيح ... فارحل هديت ولا تجعل غنيمنا
ثلجاً يصفقه بالترمذ الريح أن ... الشتاء عدو ما نقاتله

قالوا: ثم ولى الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلي خرا سان. فخرج يريد آخرون. فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ فعبروا معه النهر، فأتاه حين عبر النهر ملك الغانيان بهدايا ومفتاحٍ من ذهب، وأعطاه الطاعة ودعاه إلى نزول بلاده وكان ملك آخرون وشومان قد ضيق على الصغانيان وغزاه، فلذلك أعطى قتيبة ما أعطاه ودعاه إلى ما دعاه إليه.

وأتى قتيبة ملك كفيان بنحو ما أتاه به ملك الصغانيان، وسلما إليه بلديهما.

فانصرف قتيبة إلى مرو وخلف أخاه صالحاً على ما وراء النهر.

ففتح صالح كاسان واورشت، وهي من فرغانة. وكان نصر بن سيار معه في جيشه. وفتح بيغخر؟ وفتح خشكت من فرغانة، وهي مدينتها القديمة.

وكان آخر من فتح كاسان وأورشت وقد انتقض أهلها نوح بن أسد في خلافة أمير المؤمنين المنتصر بالله رحمه الله.

قالوا: وأرسل ملك الجوزجان إلى قتيبة فصالحه على أن يأتيه. فصار إليه ثم رجع فمات بالطالقان.

ثم غزا قتيبة بيكند سنة سبع وثمانين ومعه نيزك، فقطع النهر من زم إلى بيكند وهي أدنى مدائن بخارا إلى النهر.

فغدروا واستنصروا السغد فقاتلهم وأغار عليهم وحصرهم. فطلبوا الصلح ففتحها عنوة.

وغزا قتيبة تومشكت وكرمينية سنة ثمانٍ وثمانين. واستخلف على مرو بشار ابن مسلم أخاه، فصالحهم وافتتح حصوناً صغاراً.

وغزا قتيبة بخارا ففتحها على صلح.

وقال أبو عبيده معمر بن المثنى: أتى قتيبة بخارى فاحترسوا منه. فقال: دعوني أدخلها فأصلي بها ركعتين، فأذنوا له في ذلك، فأكمن لهم

قوماً فلما دخلوا كاثروا أهل الباب ودخلوا. فأصاب فيها مالاً عظيماً وغدر بأهلها.

قال: وأوقع قتيبة بالسغد، وقتل نيزك بطخارستان وصلبه، وافتتح كش ونسف وهي نخشب صلحاً.

قالوا: وكان ملك خوارزم ضعيفاً. وكان أخوه خرزاد قد عداه وقوى عليه. فبعث ملك خوارزم إلى قتيبة: إني أعطيك كذا وكذا وأدفع إليك المفاتيح على أن تملكني على بلادي دون أخي. وخارزم ثلاث مدائن يحاط بها فارقين؟ ومعدنية الفيل أحصنها.

وقال علي بن مجاهد: إنما مدينة الفيل سمرقند. فنزل الملك أحصن المدائن، وبعث إلى قتيبة بالمال الذي صالحه عليه، وبالمفاتيح. فوجه قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم إلى خرزاد فقاتله فقتله، وظفر بأربعة آلاف أسير فقاتلهم. وملك ملك خارزم الأول على ما شرط له. فقال له أهل مملكته: إنه ضعيف. ووثبوا عليه فقتلوه. فولى قتيبة أخاه عبيد الله ابن مسلم خوارزم.

وغزا قتيبة سمرقند، وكانت ملوك السند تنزلها قديماً ثم نزلت اشتخين. فحاصر قتيبة أهل سمرقند والتقوا مراراً فاقتتلوا، وكتب ملك السند إلى ملك الشاش وهو مقيم باطاربند فأتاه في خلق من مقاتليه.

فلقيهم المسلمون فاقتتلوا أشد قتال. ثم إن قتيبة أوقع بهم وكسرهم، فصالحه غوزك على ألفي ألف ومائتي ألف درهم في كل عام وعلى أن

يصلى في المدينة. فدخلها وقد اتخذ له غوزك طعاماً، فأكل وصلى واتخذ مسجداً، وخلف بها من المسلمين فيهم الضحاك بن مزاحم صاحب التفسير.

كما أنه صالح قتيبة على سبعة مئة ألف درهم، وضيافة المسلمين ثلاثة أيام. وكان في صلحه بيوت الأصنام والنيران. فأخرجت الأصنام فسلبت حليها وأحرقت. وكانت الأعاجم تقول: إن فيها أصناماً من استخف به هلك. فلما حرقها قتيبة بيده أسلم منهم خلق. فقال المختار بن كعب الجعفي في قتيبة:

دوخ السند بالقبائل حتى ترك السند بالعراء قعودا

وقال أبو عبيدة وغيره: لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر. فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا. فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا فنصب لهم جميع بن حاضر التاجي. فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سوآء. فكره أهل مدينة سمرقند الحرب وأقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم.

وقال الهيثم بن عدي: حدثني ابن عياش الهمذاني قال: فتح قتيبة عامة الشاش وبلغ أسيجاب. وقيل: كان فتح حصن أسبيجاب قديماً، ثم غلب عليه الترك ومعهم قوم من أهل الشاش ، ثم فتحه نوح بن أسد في خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله وبنى حوله سوراً يحيط بكروم أهله ومزارعهم.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: فتح قتيبة خوارزم، وفتح سمرقند عنوة. وقد كان سعيد بن عثمان صالح أهلها، ففتحها قتيبة بعده ولم يكونوا نقضوا ولكنه استقل صلحهم.

قال: وفتح بيكند وكش، ونسف، والشاش، وغزا فرغانة ففتح بعضها، وغزا السند.

وغزا مخلد البتم ففتحها. ثم نقضوا بعده فتركهم ومال عنهم، فطمعوا في انصرافه، ثم كر عليهم حتى دخلها. ودخلها جهم بن زحر وأصاب بها مالاً وأصناماً من ذهب، فأهل البتم ينسبون إلى ولائه.

قال أبو عبيده معمر بن المثنى: كانوا يرون أن عبد الله بن عبد الله بن الأهم أبا خاقان قد كتب إلى الحجاج يسعى بقتيبة، ويخبر بما صار إليه من المال، وهو يومئذ خليفة قتيبة على مرو. وكان قتيبة إذا غزا استخلفه على مرو. فلما كانت غزوة بخارا وما يليها واستخلفه، أتاه بشير، أحد بني الأهتم، فقال له: إنك قد انبسطت إلى عبد الله وهو ذو غوائلٍ حسودٌ، فلا نأمنه أن يعزلك فيفسدنا.

قال: إنما قلت هذا حسداً لابن عمك.

قال: فلسكن عذري عندك، فإن كان ذلك عرتني.

وغزا، فكتب بما كتب به إلى الحجاج ، فطوى الحجاج كتابه في كتابه إلى قتيبة ، فجاء الرسول حتى نزل السكة بمرو وجاوزها ولم يأت عبد الله.

أحس بالشر، فهرب فلحق بالشام، فمكث زميناً يبيع الخمر والكتانيات في رزمة على عنقه يطوف بها. ثم إنه وضع خرقةً وقطنة على إحدى عينيه ثم عصبها واكتنى بأبي طينة. وكان يبيع الزيت. فلم يزل على هذه الحال حتى هالك الوليد بن عبد الملك وقام سليمان، فألقى عنه ذاك الدنس والخرقة. وقام بخطبة تهنئة لسليمان ووقوعاً في الحجاج وقتيبة. وكانا قد بايعا لعبد العزيز بن الوليد وخلعا سليمان. فتفرق الناس وهم يقولون: أبو طينة الزيات أبلغ الناس.

فلما انتهى إلى قتيبة كتاب ابن الأهتم إلى الحجاج وقد فاته عكر علي بني عمه وبنيه. وكان أحدهم شيبة أبو شبيب فقتل تسعة أناسي منهم أحدهم بشير. فقال له بشير: اذكر عذري عندك فقال: قدمت رجلاً وأخرت رجلاً يا عدو الله! فقتلهم جميعاً.

وكان وكيع بن أبي سود قبل ذلك على بني تميم بخرا سان. فعزله عنهم قتيبة واستعمل رجلاً من بني ضرار الضبي، فقال حين قتلهم: قتلني الله أنا أقتله. وتفقدوه فلم يصل الظهر ولا العصر. فقالوا له: إنك لم تصل. فقال: وكيف أصلي لرب قتل مناعا متهم صبيان ولم يغضب لهم.

وقال أبو عبيده: غزا قتيبة مدينة فبل ففتحها. وقد كان أمية بن عبد الله ابن خالد بن أسيد فتحها. ثم نكثوا، ورامهم يزيد بن المهلب فلم يقدر عليها، فقال كعب الأشقري:

أعطيتك فيلٌ بأيديها وحق لها ورامها قبلك الفجفاجة الصلف

طريق الحرير البحري في العهد الإسلامي

في بداية القرن السابع الميلادي ، شهدت جزيرة العرب حدثا مهما غير مجرى التاريخ فيها الا وهو دعوة الإسلام التي أنزلها الله على نبيه محمد في مكة، وخلال سنوات قليلة انتشرت هذه الدعوة وعمت جزيرة العرب وأصبح لها دولة قوية عاصمتها المدينة، وفي نقلة سريعة أخرى امتدت دولة الإسلام شرقا وغربا وشملت أملاك القوتين الساسانية والبيزنطية ، ولم يبدأ القرن الثامن للميلاد الا ونفوذ المسلمين يصل إلى الحدود الغربية للصين، وبذلك أصبحت الأجزاء الكبرى من طريقي الحرير البري والبحري واقعة في ديار الإسلام وخاضعة لنفوذ المسلمين .هنا تبدأ صفحة جديدة في تاريخ العلاقات التجارية بين الصين وبلاد الإسلام عامة والجزيرة العربية على وجه الخصوص.

لقد خلقت الفتوحات الإسلامية كتلة اقتصادية عالمية كبيرة شملت مصر وشمال أفريقيا والجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق وايران وأجزاء كبيرة من أواسط آسيا، كما جمعت لأول مرة في التاريخ الخليج العربي والبحر الأحمر تحت سلطة واحدة ، وكان لموقف الصينيين السلمي من هذا المد الإسلامي أكبر الأثر في تطور التجارة بينهم وبين أكبر كتلة اقتصادية شهدها العالم القديم، فلم يدخل الصينيون في صراع مع المسلمين الذين اقتربوا كثيرا من حدودهم بل استطاعوا بحكمتهم المعهودة التكيف مع الوضع الدولي الجديد والتغير الذي طرأ على موازين القوى في العالم فسارعوا إلى الدخول في علاقات سلمية مع المسلمين وركزوا على تطوير

التجارة واستفادوا من الأمن والاستقرار الذي وفره المسلمون على مسارات طرق الحرير البرية والبحرية فانطلق الصينيون بأنفسهم ينقلون بضائعهم إلى ديار الإسلام وأخذت سفنهم تبحر شرقا إلى الموانئ العربية في الخليج والبحر الأحمر وساحل اليمن وحضرموت، وبالمقابل سهلوا للتجار العرب المسلمين الوصول إلى بلادهم والإقامة بها ومزاولة التجارة في حرية وعدل وأمان وأصبحت السفن العربية تصل بدورها مباشرة إلى ميناء كانتون.

وأول إشارة في المصادر العربية عن العلاقات السياسية بين الصين والجزيرة العربية في العهد الإسلامي يرجع تاريخها إلى عهد الخلفاء الراشدين، اذ تذكر المصادر العربية أن فيروز بن يزدجرد ابن ملك الفرس طلب مساعدة امبراطور الصين في صد غارات جيوش العرب المسلمين الذين استولوا على بلاده وقتلوا أباه، وأن امبراطور الصين اعتذر له ، ولم يقدم له العون العسكري الذي طلبه محتجا ببعد المسافة واكتفى بإرسال سفير من قبله إلى المدينة ليشرح قضية فيروز.

وقيل أن الخليفة الراشد عثمان بن عفان أرسل أحد قواده لمرافقة السفير الصيني في عودته سنة ٦٥١م، وأن امبراطور الصين أكرم وفادة القائد المسلم. اما المصادر الصينية فقد ذكرت المسلمين لأول مرة في بداية القرن السابع الميلادي، فقد أشار مؤرخوا الصين في ذلك القرن إلى الدين الجديد الذي ظهر في مملكة المدينة، وتشير المصادر الصينية أيضا أن جماعة من المسلمين قدموا إلى كانتون في بداية حكم أسرة تانغ

(٦١٨-٩٠٧) وحصلوا من امبراطور على أذن بالإقامة فيها وأتخذوا لأنفسهم بيوتا جميلة تختلف في طرازها عن البيوت الصينية.

وهناك قصة مشهورة في المصادر العربية عن حادثة وقعت بين الصينيين والفاتحين المسلمين في العصر الأموي بطلها القائد المشهور قتيبة بن مسلم الباهلي، وهو من قبيلة تسكن في وسط جزيرة العرب في منطقة نجد غير بعيد عن مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، فقد فتح هذا القائد زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٧٠٥-٧١٥م) مدينة بخارى وسمرقند ووصل إلى حدود الصين وحلف الا ينصرف حتى يطأ أرض الصين، وبعث إلى امبراطورها وفدا، وبعد حوار طويل مع الوفد بعث اليه امبراطور الصين بحرير وهدايا متنوعة وصحاف من ذهب بها تراب من تراب الصين ليطأه بقدمه ويتحلل من يمينه، فقبل قتيبة الهدايا ووطأ التراب وقفل راجعا.

وفي الفترة نفسها تذكر المصادر التاريخية الصينية أن رسولا جاء من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك إلى الامبراطور الصيني هسوان تسونج سنة ٧٢٦م \ ١٠٨هـ ، وتشير المصادر الصينية أيضا أن العرب حلوا محل الفرس في أوائل القرن الثاني الهجري (٨م) في السيطرة على تجارة الحرير كما تشير أيضا إلى تاجر عماني قام برحلة إلى الصين واسمه أبو عبيد الله عبد الله بن القام وقد وصل إلى الصين حوالي سنة (١٣٣هـ - ٧٥٠) واشترى الأخشاب.

قتيبة بن مسلم نشر الإسلام حتى حدود الصين

هناك درس في حضارتنا يجب أن نقف عنده طويلاً وأن نحلله التحليل الموضوعي، وهذا الدرس يقول: إن بعض القوى الحاكمة في تاريخنا كانت تؤثر المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ، وقد تضحي بأبطال عظماء في سبيل ما تراه ضامنا لمصالحها، بل تتوهم أخطاراً فتبني على أساسها سلوكيات خاطئة مدمرة.

ولقد كان القائدان محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند، وقتيبة بن مسلم الباهلي فاتح المشرق حتى حدود الصين، ضحيتين لهذه التقديرات المتعسفة، والصراعات الوهمية الصغيرة، وكل ذنبهما أنهما كانا يعملان مع والٍ من الولاة، أو مع خليفة سابق، ودفعا ثمن ذنب لم يرتكباه.

وعندما نتحدث عن جهود قتيبة بن مسلم، رحمه الله، فإننا نستطيع القول في بداية حديثنا إن قتيبة كان الفاتح الحقيقي الأبرز لبلاد ما وراء النهر، وقد تمكن أن يمد إليها نفوذ الدولة الأموية (٤١ ١٣٢هـ) إلى حدود الصين.

وإلى جانب ذلك كان له دور كبير في نشر الإسلام في تلك البلاد، حيث شجع الناس بوسائل كريمة على اعتناقه كما أنه اعتنى ببناء المساجد وتوزيع العلماء في الشرق، حتى غدا أهل تلك المنطقة جلهم مسلمين.

وتوطئة لجهوده العسكرية في بلاد ما وراء النهر راح يجمع المعلومات عن تلك البلاد، ويراسل أمراء المناطق التي أسلمت في أفغانستان لكي تساعده وجيوشه الإسلامية على فتح تلك البلاد، لأنهم الأعرف بطبيعة بلاد ما وراء النهر، وطبيعة سكانها، ومن ثم قرر عبور نهر جيحون، فسار من مرو تجاه الشرق حتى وصل إلى مدينة (الطالقان) وفرض الصلح على الأماكن التي مر بها.

حصار "بيكند"

كانت مدينة (بيكند) من المدن المهمة تجاريا بين الصين وخراسان كما أنها كانت مشهورة بازدهار الزراعة.

وقد تقدم قتيبة لفتح (بيكند) بعد عبوره نهر جيحون، وكانت المدينة محاطة بأسوار ضخمة وفيها حامية قوية، ولكن بعض حلفاء أهل (بيكند) ومنطقة (بخارى) من الأتراك وغيرهم قاموا بحركة التفاف وتمكنوا من تطويق قتيبة وجيشه، وقطع كل خطوط مواصلاته مع الكوفة، فأصبح، وهو الذي كان يحاصر (بيكند)، محاصرا أيضا حولها.

وبذل الأعداء جهودا كثيرة لتدمير قتيبة وجيشه معنويا وماديا، إلا أنه واجه هذه الأوضاع بحزم كبير، ثم خاض ضد الترك معركة قاسية، انتهت بهزيمة الترك هزيمة شنعاء، فهرب منهم قسم كبير ولاذ القسم الآخر بمدينة (بيكند) الحصينة.

ودخل قتيبة (بيكند)، وما إن ابتعد عن المدينة بنحو خمسة فراسخ (حوالي ٣٠ كم) حتى تمردت المدينة ونقضت الصلح وقتلت ورقة بن نصر، فبادر قتيبة إلى (بيكند)، فباشر دك أسوارها وفتح ثغرة فيها بواسطة قصف المنجنيق حتى هدم أسوارها واقتحمها وأباد حاميتها كلها.

وكان لسيطرة العرب على مدينة (بيكند) أثر كبير في فتوحات على بلاد ما وراء النهر جميعها، إذ كانت بيكند تعتبر يومها جوهرة ما وراء النهر وبلد التجار والتجارة وفي سنة ٨٨ ه ٧٠٦م تقدم قتيبة على رأس الجيش الإسلامي من مرو، ثم اتجه إلى رامتنة الواقعة في شمال مدينة بخارى، فطلبت الصلح واستسلمت دون قتال، وتقدم قتيبة بعد ذلك بجيشه نحو وردان، إلا أن الإمدادات التي وصلت إلى حاكم بخارى من حلفائه تجمعت في (خرقانة) السفلى لصده، وبعد قتال شديد دام يومين وليلتين، تمكن الجيش الإسلامي من دحرهم، إلا أنه لم يتمكن من التغلب على وردان خداه (ملك بخارى) الذي تحصن في مدينة وردان.

ثم سار قتيبة بجيشه سنة ٩٠ للهجرة واستطاع أن يطوق بخارى ووردان إلا أن جموع "الصغر" وحلفاءهم التي تجمعت في ميدان المعركة لنجدة الملك وردان شجعت حامية بخارى على الخروج من الطوق الذي ضربه الجيش الإسلامي حول المدينة، فدار أعنف قتال، وقاتل المسلمون بضراوة، وكان قتيبة يجول بين الصفوف كالأسد الجسور حتى انتهت المعركة بانتصار المسلمين.

غزو خوارزم :

وفي سنة ٩٣ هـ ، قام قتيبة بغزو مناطق (خوارزم) على مصب نهر جيحون بالقرب من بحيرة خوارزم وأدخل قتيبة المنطقة في طاعة الأمويين، ثم غزا (سمرقند) ونقل إليها كثيرا من الأسر المسلمة التي ساعدت في نشر الإسلام بها.

وفي سنة ٩٤ هـ ، غزا قتيبة بلاد (الشاش) و(فرغانة) وفتح العديد من المدن حتى وصل سنة ٩٦هـ إلى حدود الصين، ودارت بينه وبين ملكها المراسلات حيث قال ملك الصين لرسل قتيبة "انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف فإني عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت إليكم من يهلككم ويهلكه"، فقال رسول قتيبة: "كيف يكون قليل الأصحاب مَن أول خيله عندكم وآخرها في منابت الزيتون، وإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه"، فقال الملك: "فماذا يرضيكم"؟

قال رسول قتيبة: "إن القائد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويأخذ الجزية منكم".. فقال: "فإنا نخرجه من قسمه، فنبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها"، ثم بعث ملك الصين إلى قتيبة بالهدايا والجزية، وبعث بأوان من ذهب فيها من تراب الصين، وأربعة غلمان من أبناء الملوك، فقبل قتيبة الجزية والهدايا، ووطأ التراب، برا بقسمه الذي أقسمه، وفي المقابل خضع إمبراطور الصين لشروط قتيبة مما يؤكد لنا عزة الإسلام من جانب، وانتصار المسلمين بالرعب من جانب آخر.

إقليم كاشغر وقتيبة بن مسلم

كاشغر: مدينة من أشهر مدن تركستان الشرقية وأهمها، وكانت عاصمة تركستان الشرقية، ولها مركز عظيم في التجارة مع روسيا من جهة والصين من جهة ثانية وبلاد ما وراء النهر من جهة ثالثة، وتشتهر بمنسوجاتها الصوفية الجميلة .

وكانت كاشغر تعتبر قديماً من بلاد ما وراء النهر، وهي تضم قرى ومزراع كثيرة، يسافر إليها من سمرقند وإقليم الصغد، وهي في وسط بلاد الترك، وأهلها مسلمون.

وينسب إلى كاشغر علماء كثيرون، منهم أبو المعالي طفرل شاه محمد بن الحسن بن هاشم الكاشغري الواعظ ، وكان عالماً فاضلاً، سمع الحديث الكثير، وطلب الأدب والتفسير، ومولده سنة ٤٩٠ هـ، وتجاوز سنة ٥٥٠ هـ في عمره، ومنهم أبو عبد الله الحسين بن علي خلف بن جبرائيل بن الخليل بن صالح بن محمد الألمعي الكاشغري، كان شيخاً فاضلاً واعظاً، وله تصانيف كثيرة بلغت في الحديث وحده ما تصانيف كثيرة بلغت في الحديث وحده مائة وعشرين مصنفاً وأكثر، وتوفي ببغداد سنة ٤٨٤ هـ .

وهكذا كان المسلمون في أيام عزهم، ينتقلون لطلب العلم والرزق من كاشغر شرقاً إلى الأندلس غرباً، إلى سيبيريا شمالاً، إلى المحيط جنوباً، دون جوازات سفر ولا تأشيرات دخول وبغير حدود ولا سدود، وقد أصبحت

دولة الإسلام اليوم، دولة الإسلام الواحدة، سبعاً وثمانين دولة ما بين ملكية وجمهورية وإمارة ومشيخة ومستعمرة، يحتاج الذي يريد زيارتها -إن استطاع وسمح له- إلى عشرات سمات الدخول ومئات العراقيل وآلاف العقبات، وأصبح المسلم في دار الإسلام غريباً .

وتركستان الشرقية التي تقع فيها مدينة كاشغر، يحدها من الجنوب الباكستان والهند (كشمير) والتبت، ومن الجنوب الغربي والغرب أفغانستان وتركستان الغربية، ومن الشمال سيبيريا، ومن الشرق والجنوب الشرقي الصين ومنغوليا .

وقد اجتاحت تركستان الشرقية القوات الصينية الشيوعية سنة ١٩٤٩م واحتلتها، فأطلق عليها الصينيون اسم (سينكيانج) وهي كلمة صينية تعني: المستعمرة الجديدة، وتبعهم بهذه التسمية الأوروبيون وبعض المصادر العربية الحديثة، إلا أن أهل تركستان الشرقية المسلمون يحبون أن تسمى بلادهم باسمها القديم: تركستان الشرقية، ولا يحبون تسميتها بالاسم الصيني الجديد .

وقد لعبت تركستان الشرقية دوراً تاريخياً مهماً في التجارة العالمية. وكان طريق الحرير المشهور يمر بها، وهو الطريق الذي كان يربط بين الصين، أبعد بلاد العالم القديم، والدولة البيزنطية .

وبدأ الإسلام يدخل تركستان الشرقية على عهد عبد الملك بن مروان سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م)، ولكن البلاد أصبحت إسلامية حكومة

وشعباً سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة الهجرية (٩٦٤م) وبدخول السلطان ستوق بغراخان الإسلام، شمل الإسلام البلاد كافة .

ولا يزال أهل تركستان الشرقية مسلمين حتى اليوم، ولكن القابض على دينه كالقابض على الجمر .

التمهيد للفتح:

قطع قتيبة بن مسلم الباهلي النهر -نهر جيحون- في سنة أربع وتسعين للهجرة (٧١٢م) متوجهاً إلى فرغانة. وفرغانة اسم مدينة واسم إقليم. وإقليم فرغانة من أقاليم نهر سيحون في بلاد ما وراء النهر، متاخمة لتركستان، وليس فما وراء النهر أكثر قرى من فرغانة، وربما بلغ حد القرية مرحلة لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم وزروعهم .

أما فرغانة ، المدينة فكثيرة الخيرات، كثيرة القرى والحقول والمزارع، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً .

واصطدمت قوات قتيبة بقوات أهل فرغانة في مدينة خجندة إحدى مدن إقليم فرغانة، فقاوم أهل فرغانة ومن معهم من الترك القادمين مدداً لهم من مدينة كاشغر المجاورة، وكانت مقاومتهم شديدة اضطر قتيبة على الاشتباك بهم مراراً، وفي كل مرة يكون الظفر فيها للمسلمين. وأخيراً انتهت مقاومة أهل فرغانة وحلفائهم الباسلة، ففتح المسلمون الإقليم كافة .

وكان سبب حشد أهل فرغانة قواتهم الضاربة في خجندة، هو أنها أول مدن إقليم فرغانة من الغرب، وهي على حدود إقليم الصغد الشرقية التي فتحها المسلمون من قبل، فهي الخط الدفاعي الأول عن إقليم فرغانة .

وخُجندة، بلدة مشهورة بما وراء النهر، تقع على شاطئ سيحون، بينها وبين سمرقند عشرة أيام شرقاً، وهي مدينة نزهة، ليس بذلك الصقع أنزه منها، وفي وسطها نهر جار، ولأهلها سفن يسافرون بها في سيحون، وتقوم على ضفة سيحون اليسرى .

ولعل موقع هذه المدينة القريب من إقليم الصغد الذي فتحه المسلمون قبل اليوم، وتيسر وسائط النقل فيها، وكثرة موادها الغذائية، وأهميتها القصوى لإقليم فرغانة، هي أهم أسباب حشد قوات إقليم فرغانة على أرضها، وقبول المعركة الدفاعية الحاسمة عن إقليم فرغانة في ربوعها .

الفتح :

كان الاحتفاظ بإقليم فرغانة بيد المسلمين، يقضي على المسلمين فتح منطقة كاشغر التي تقع شرقي إقليم فرغانة، ويقطنها الترك كما يقطنون إقليم فرغانة. وفي سنة ست وتسعين هجرية (٧١٤م) غزا قتيبة مدينة كاشغر، وهي أدنى مدائن الصين وأقربها إلى فرغانة .

وسار قتيبة من مرو عاصمة خراسان على رأس جيشه، وحمل الناس عيالاتهم لتستقر في سمرقند .

وعبر الجيش الإسلامي نهر جيحون، فاستعمل قتيبة رجلاً على معبر النهر، ليمنع من يرجع من جنده إلا بجواز منه وبموافقته الخطية .

ومضى جيش المسلمين إلى فرغانة، مروراً بسمرقند، حيث أبقى الناس عيالاتهم فيها بحماية المسلمين من أهل سمرقند، وكان الإسلام قد انتشر فيها انتشاراً سريعاً موفقاً .

وفي فرغانة، أكمل قتيبة استعدادات جيشه للقتال، وأرسل إلى (شعب عصام) الفَعَلَة لتمهيده، حتى يجتاز الجيش بسهولة ويسر وسرعة، فأكمل الفعلة مهمتهم، وأخبروا قتيبة بإكمالها .

والفعلة هم سلاح الهندسة، كما نطلق عليه اليوم في المصطلحات العسكرية الحديثة: وهم الذين يمهدون الطرق، ويبنون القناطر والجسور، ويزيلون العقبات الطبيعية، ويؤمّنون وسائط عبور الأنهار، ويشرفون على العبور والمعابر .

ويبدو أن (شِعب عصام) أو وادي عصام، عارض من العوارض الطبيعية الوعرة، يعرقل مسيرة الجيش بقوات كبيرة، ويقع بين فرغانة والحدود الصينية القديمة .

وتقدم قتيبة على رأس جيشه من فرغانة، سالكاً الطريق التجارية التي تربط مدينة فرغانة بمدينة كاشغر، ماراً بجنوب بحيرة (جاتيركول) السوفييتية حالياً، على الحدود الصينية-السوفييتية، مقتحماً ممر (تيترك) في تركستان الشرقية .

وبعث قتيبة مقدمة أما جيشه إلى كاشغر، فتقدمت حتى وصلت إلى هدفها، بعد أن أزاحت المقاومات الطفيفة التي صادفتها في طريقها، وغنمت وسبت .

وأوغل قتيبة حتى قارب حدود الصين القديمة، ففتح كاشغر، وجنغاريا الواقعة على حدود منغوليا، وترفان على مقربة من الحدود المنغولية، وخوتن الواقعة شمالي التبت وكشمير، وقانو التي تقع تماماً في منتصف الصين الحالية .

ولكن المصادر العربية المعتمدة تقتصر على فتح كاشغر في هذه السنة ، ولا تقدم التفاصيل الإضافية الأخرى عن فتوح المدن الصينية الأخرى .

المفاوضات :

بات الاصطدام بين المسلمين من جهة وبين ملك الصين من جهة ثانية وشيكاً، فطلب ملك الصين التفاوض بين الجانبين، وعرض التفاوض على قتيبة، فقد أوغل قتيبة حتى قارب الصين واخترق حدودها الغربية، فكتب إليه ملك الصين» :ابعث إلي رجلاً شريفاً يخبرني عنم وعن دينكم»، فوافق قتيبة على طلب ملك الصين.

واختار قتيبة من بين رجال جيشه اثني عشر رجلاً، لهم جَمال وألسن وبأس وتجمّل وصلاح، وأمر لهم بعُدّة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشي وغير ذلك وخيول حسنة، وكان منهم هُبيرة بن المشمرج الكلابي

مفوّهاً سليط اللسان، وقال لهم: «إذا دخلتم على ملك الصين، فأعلموه أنـــي حلفتُ أني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجبي خراجهم .

وسار وفدُ قتيبة إلى ملك الصين، عليهم هبيـــرة بـــن المـــشمرخ الكلابي، فلما قدموا الصين، دعاهم ملكها، فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغلائل، وتطيبوا ولبسوا الأردية، ودخلوا على الملك، وكان عنده عظمـــاء قومـــه، فأخذوا أماكنهم في مجلسه، فلم يكلم الملك الوفد ولا أحد ممن عنده .

ولما انصرف الوفد من مجلس الملك، قال الملك لمن حضره: «كيف رأيتم هؤلاء؟» قالوا: «رأينا قوماً ما هم إلا نساء.

وبالطبع قال من حول الملك ما يحب الملك أن يسمع، لا مـــا يجـــب على الملك أن يسمع، أسوة من حول أصحاب السلطان في كل زمان وكـــل مكان .

وفي غد دعاهم الملك إلى مجلسه، ولبسوا الوشي وعمـــائم الخـــز والمطارف –ألبسة من خزّ مربعة لها أعلام– وغدوا عليه، فلما دخلوا عليه قيل لهم: ارجعوا .

وقال الملك لأصحابه بعد انصراف وفد المـــسلمين: كيـــف رأيـــتم؟ فقالوا: هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك .

وفي اليوم الثالث ، دعاهم الملك إلى مجلسه أيضاً، فشدوا سلاحهم، ولبسوا البيض– الخوذ والمغافر– (جمع مِغفر)، وهو زرد ينسج على قـــدر

الرأس، يلبس تحت القلنسوة ..وأخذوا السيوف والرماح والقسي، وركبوا خيولهم العربية المطهمة الأصيلة .

ونظر إليهم ملك الصين، فرأى أمثال الجبال المقبلة، فلما دنوا من مجلس الملك، ركزوا رماحهم ثم أقبلوا مشمرين .

وقيل لهم قبل أن يدخلوا على الملك« :ارجعوا..« لما دخل في قلوب الملك ومن معه من رجال الصين وقادتها من خوف ورهبة .

وانصرف الوفد عائداً إلى مستقره، بعد أن أخذوا رماحهم واستعادوا سلاحهم وامتطوا خيولهم، ثم دفعوا الخيل حضراً -عدْو ذو وثب، وهو ركض الخيل بأقصى سرعتها، كالذي يجري في سباق الخيل- كأنهم يتطاردون، فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ فقالوا: ما رأينا مثل هؤلاء !

وفي مساء ذلك اليوم، بعث ملك الصين إليهم، أن ابعثوا إليّ زعيمكم. فبعثوا إليه هبيرة، فقال له الملك: قد رأيتم عظم ملكي، وأنه ليس أحد يمنعكم مني، وأنت في يدي بمنزلة البيضة في كفي، وإني سائلكم عن أمر، فإن لم تصدقوني قتلتكم .

وما كان هبيرة بحاجة إلى التهديد والوعيد، وليس هو من الرجال الذين يخيفهم التهديد والوعيد، فهو لا يكذب أبداً حتى ولو قتل على أن يكذب لا على ألا يكذب، فلا مجال لتهديده بالقتل إذا لم يصدق .

وسأل الملك هبيرة :لماذا صنعوا في الزي الأول ما صنعوا، ثم الزي الثاني، والزي الثالث؟

وكان جواب هبيرة: أما زيّنا الأول، فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا، وأما الثالث فزيّنا لعدوّنا .

وقال الملك: ما أحسن ما دبرتم دهركم، فانصرفوا إلى صاحبكم، فقولوا له: ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثتُ عليكم من يهلككم ويهلكه.

وإذا كانت الجبال الراسيات تهتز قيد أنملة من خطرات النسيم العليل، فإن هبيرة قد اهتز يومئذ من وعيد الملك وتهديده، فلا بد له من أن يبلغ هذا الملك رسالة قتيبة بقوة وأمانة وصدق، فقال للملك في ثقة كاملة وهدوء تام: كيف يكون قليل الأصحاب مَن أول خيوله في بلادك، وآخرها في منابت الزيتون! وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا وغزاك؟

وأما تخويفك بالقتل، فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه .

واستخذى الملك في مجابهة قولة الحق، فنسي تهديده ووعيده، ثم تساءل في قول ليّن رقيق: فما الذي يُرضي صاحبك؟ فأجابه هبيرة بقول فصل لا مساومة فيه: إنه حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويُعطَى الجزية .

واستخذى الملك إلى درجة الانهيار بعد أن سمع كلمة الحق تزهق الباطل، فقال: فإنا نخرجه من يمينه: نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطأه، ونبعث أبناءنا فيختمهم، ونبعث له مالاً يرضاه .

ودعا الملك بصحاف من ذهب فيها تراب من أرض الصين، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجاز الوفد فأحسن جوائزهم، فقدموا على قتيبة الذي قبل الجزية، وختم الغلمان، وردّهم إلى الملك، ووطئ تراب الصين .

وقد لجأ الوفد الإسلامي إلى تبديل أزيائهم للتأثير في معنويات ملك الصين ومن معه، مما أدّى إلى انهيار معنويات الصينيين واستجابتهم لمطالب المسلمين.

حقيقة الفتح :

المؤرخون العرب يذكرون أن مدينة كاشغر هي أدنى مدائن الصين، ولكن البلدانيين العرب يذكرون أنها من مدن تركستان. وما أخطأ المؤرخون العرب، لأن حدود الصين كانت تمتد غرباً فتضمّ حدودُها تركستان الشرقية بكاملها، أو جزءاً منها في حالة اشتداد قوة ملوك الصين، وتنحسر تلك الحدود نحو الشرق، فتستقل تركستان الشرقية بحدودها الطبيعية، أو تمتد حدود تركستان الشرقية فتضم إليها أجزاء من الصين، في حالة قوة ملوك تركستان وضعف ملوك الصين. وما أخطأ البلدانيون العرب القدامى في ذكرهم أن مدينة كاشغر من مدن تركستان الشرقية، فهي في الواقع كذلك أصلاً، ولكنها تدخل في حدود الصين تارة، وتكون خارج حدودها تارة أخرى .

وقد ظلت تركستان الشرقية خاصة عرضة لهجمات الصينيين حتى أصبحت اليوم من أجزاء الصين كما هو معلوم .

ومن مراجعة تاريخ تركستان الشرقية القديم يتضح لنا أن منطقة كاشغر والمناطق التي حولها التي امتدت الفتوحات الإسلامية إليها، كانت ضمن دولة (كول تورك) التي كانت من سنة ٥٥٢ م إلى سنة ٧٤٥ م، ومعنى هذا أن الفتح الإسلامي في تركستان سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤ م) كان على عهد تلك الدولة التركية التي كانت في عداء مستمر مع جارتها الشرقية الصين، وكانت على ولاء كامل مع بلاد ما وراء النهر، وخاصة مع إقليم فرغانة، لأن العنصر التركي كان يسيطر على هذا الإقليم، فكان تعاونه مع تركستان الشرقية تعاوناً وثيقاً .

ويذكر لنا تاريخ تركستان الشرقية القديم، أن الاضطرابات شملت تركستان الشرقية سنة إحدى وعشرين ومائة الهجرية (٧٣٨ م)، فاستغل الصينيون هذه الاضطرابات واعتدوا على تركستان الشرقية وضمّوها إلى بلادهم .

ولكن الأتراك من سكان تركستان الشرقية تمكنوا من الحصول على المعونات العربية الإسلامية سنة أربع وثلاثين ومائة الهجرية (٧٥١ م) على عهد الدولة العباسية في بغداد، وتمكنوا بهذا العون من إنقاذ بلادهم من حكم الصين، و هزموا الصينيين في معركة (تالاس) المشهورة.

يتضح من ذلك أن الفتح الإسلامي في كاشغر والمدن الأخرى جرى في تركستان الشرقية لا في الصين، ولكن ملك الصين الذي وجد سرعة

تقدم الفتوح الإسلامية ووصولها إلى حدوده الغربية مباشرة في حينه، سعى لإرضاء الفاتحين خوفاً من اختراق بلاده وفتحها، فقدم ما قدم لقتيبة إرضاء له ولمن معه من المجاهدين، وصداً لتيارهم الجارف بالتي هي أحسن .

والسبب الحقيقي لعودة قتيبة وجيشه عن حدود الصين الغربية، كما تذكر المصادر التاريخية المعتمدة، هو وصول خبر وفاة الوليد بن عبد الملك، وتولّي سليمان بن عبد الملك الخلافة بعده، وكان ذلك سنة ست وتسعين الهجرية[٣] وكان الوليد مؤيداً لقتيبة وسنداً له أسوة بقادة الحجاج بن يوسف الثقفي كافة، وكان سليمان يكرههم ولا يميل إليهم، لأن الوليد بن عبد الملك أراد أن ينزع أخاه سليمان بن عبد الملك عن ولاية العهد ويجعل بدله عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ابنه، فبايعه على خلع سليمان الحجاجُ وقتيبة وقادة الحجاج الآخرون .

وعاد قتيبة بمن معه من جيش المسلمين، فقتل في فرغانة سنة ست وتسعين هجرية، وهو في طريق عودته إلى خراسان،

عداوة سليمان بن عبد الملك لقتيبة

كان قتيبة بن مسلم حين بلغه ولاية سليمان الخلافة بعد أخيه الوليد كتب إليه كتابًا يعزيه في أخيه ويهنئه بولايته ويذكر فيه بلاءه وقتاله وهيبته في صدور الأعداء وما فتح الله من البلاد والمدن والأقاليم الكبار على يديه وأنه له على مثل ما كان للوليد من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان، ونال في هذا الكتاب من يزيد بن المهلَّب.

ثم كتب كتابًا ثانيًا يذكر ما فعل من القتال والفتوحات وهيبته في صدور الملوك والأعاجم ويذم يزيد بن المهلب أيضًا، ويقسم فيه لئن عزله وولى يزيد ليخلعن سليمان عن الخلافة، وكتب كتابًا ثالثًا فيه خلع سليمان بالكلية وبعث بها مع البريد وقال له ادفع إليه الكتاب الأول فإن قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثاني فإن قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثالث فلما قرأ سليمان الكتاب الأول واتفق حضور يزيد عند سليمان دفعه إلى يزيد فقرأه.

فناوله البريد الكتاب الثاني فقرأه ودفعه إلى يزيد، فناوله البريد الكتاب الثالث فقرأه فإذا فيه التصريح بعزله وخلعه فتغير وجهه ثم ختمه وأمسكه بيده ولم يدفعه إلى يزيد وأمر بإنزال البريد في دار الضيافة فلما كان من الليل بعث إلى البريد فأحضره ودفع إليه ذهبًا وكتابًا فيه ولاية قتيبة على خراسان وأرسل مع ذلك البريد بريدًا آخر من جهته ليقرره عليها فلما وصلا بلاد خراسان بلغهما أن قتيبة قد خلع الخليفة فدفع بريد سليمان

الكتاب الذي معه إلى بريد قتيبة ثم بلغهما مقتل قتيبة قبل أن يرجع بريد سليمان.

ولما قبل وكيع بن أبي سود بصارم بخرا سان؟ وضبطها أراد سليمان توليته إياها فقيل له: إن وكيعاً ترفعه الفتنة وتضعه الجماعة، وفيه جفاءٌ وأعرابية.

وكان وكيع يدعو بطستٍ فيبول والناس ينظرون إليه، فمكث تسعة أشهر، حتى قدم عليه يزيد بن المهلب وكان بالعراق، فكتب إليه سليمان أن يأتي خرا سان، وبعث إليه بعهده، فقدم يزيد مخلداً ابنه فحاسب وكيعاً وحبسه وقال له: أد مال الله، فقال: أوخازاً لله كنت

دول دخلها الاسلام
على يد قتيبة بن مسلم

الإسلام في أوزبكستان :

وصلها الإسلام بعد فتح بلاد الفرس ، فلقد تقدم الأحنف ابن قيس إلى أعالي نهر جيجون في سنة ثلاثين هجرية ، وفي الأمويين تولى أمر خراسان زياد بن أبي سفيان ، وغزا المنطقة الجنوبية من التركستان ، وفي عهد ولاية سعيد بن عثمان خرسان ، اجتاز نهر جيجون في جنوبي أوزبكستان ، فكان أول من اجتاز النهر بقوات إسلامية ، وفتح مدينة بيكند، وتقع بين بخاري ونهر جيجون ، ثم فتح بخاري صلحاً بعد حصارها في سنة ٥٥هـ ، وأغار على سمرقند ، ولكن بخاري نقضت العهد فتكرر غزوها.

واستقرت أحوال فتح إقليم التركستان في ولاية قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ٨٨ هـ ، ففي عهده دخلت فتوح ما وراء النهر مرحلة حاسمة أخذت أربعة أدوار ، ففي الدور الأول استعاد المناطق التي نكست بالعهد مثل طاخارستان وأعاد فتح بخاري أثناء الدور الثاني ، وقد انتهي هذا الدور في سنة ٩٠ هـ ، وفي الدور الثالث استطاع قتيبة أن يثبت الفتوح في حوض نهر جيجون وبسط نفوذ الإسلام على بلاد الصفد ، وفي الدور الرابع فتح بلاد حوض نهر سيحون ووصل إلى فرغانة ، وهكذا فتح

قتيبة بلاد أوزبكستان فتحاً ثبت دعائم انتشار الدعوة الإسلامية ، وبني أول مسجد في بخاري في سنة ٩٤ هـ.

وفي عهد العباسين في ولاية المعتصم ، اعتنق الإسلام العديد من قبائل التركستان ، واستخدم الأتراك جنداً في جيشه ، وقام السامانيون بنقل الدعوة الإسلامية إلى آفاق جديدة في بلاد التركستان وأخذ أمراء السامانيون على عاتقهم نشر الدعوة حتي حدود الصين ، ثم جاء دور السلاجقة في القرن الرابع الهجري .

وكان إسلام المغول دفعة جديدة للإسلام، ولكنها انقسمت الي دويلات بعد ضعفها وبدأت محاولات الروس لابتلاع الدول الإسلامية منذ سنة (٩٦٤ هـ - ١٥٥٦ م) بالاستيلاء على قازان وانتهت بالاستيلاء على التركستان في سنة (١٣٠٢ هـ - ١٨٨٤ م) .

وعندما استولي الشيوعيون على السلطة بدأوا بالاستيلاء على البلاد الإسلامية واحدة تلة الأخري ، وقضوا على اللغة العربية ، وبأوزبكستان مقر الإدارة الدينية لمسلمي وسط آسيا وقازاخستان ، وفي طشقند معهد الدراسات الشرقية ، ومكتب العقيدة الإسلامية ، وكانت لغة الأوزبك تكتب بحروف عربية حتي سنة (١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م) عندما استبدلها الروس بأبجديتهم ، وتعرف اللغة بالأوزبكية نسبة (للأوزبك) وهي إحدي اللغات التركية ، وبعد تفكك وانهيار الاتحاد السوفيتي أعلنت أوزبكستان استقلالها في ديسمبر ١٩٩١ م .

الإسلام في جمهورية التركمان :

ارتبط وصول الإسلام إليها بوصوله إلى منطقة خراسان ، ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب وصل الأحنف بن قيس إلى مدينة هراه ، وفي خلافة عثمان بن عفان وصل الأحنف بن قيس إلى بلاد طخارستان في أعالى نهر جيجون وتجاوز مدينة مرو وانتصر على تحالف الطخارستانين ، وتولى أمير بن أحمد مرو ، وأسكن العرب بها ، وعندما انتصف القرن الأول الهجري كان الإسلام قد ثبت دعائمه في مرو ، واتخذ المسلمون منها قاعدة لتحركهم في إقليم ما وراء النهر ، فعبر سعيد بن عثمان نهر جيجون بقوات إسلامية لفتح ما وراء النهر في سنة ٥٥ هـ ، وعندما قام قتيبة بن مسلم الباهلي بفتوحاته إلى بلاد فرغانة وكاشغر كان يتخذ من مرو قاعدة لانطلاق الغزوات ، وهكذا كان دور منطقة التركمان في الفتوح الإسلامية لوسط آسيا .

وفي خلافة المأمون العباسي ، مد الطاهريون نفوذهم على خراسان وما جاورها ، وعندما قامت الدولة السامانية في العصر العباسي الثاني ، كانت مرو إحدى الأقاليم التابعة لها ، وزاد تثبيت الإسلام بمنطقة وسط آسيا .

وفي القرن السادس الهجري قامت دولة الغزنويين مكان السامانين وبسطت نفوذها على خراسان ووسط آسيا ، ثم جاء دور السلاجقة واتخذوا من منطقة تركمانيا قاعدة لهم وامتد نفوذهم إلى خراسان ووسط آسيا وغربها ، بل وصل بغداد ،ثم استولي المغول على وسط آسيا وغربها ،

وبعد إسلامهم أخذوا على عاتقهم نشر الإسلام بين شعوب آسيا الوسطي وأمودريا .

واستولي الروس على الدويلات المغولية في سنة ١٣٠٢ هـ ، وفي عهد السوفيات أصبحت تركمانيا جمهورية اتحادية في سنة ١٣٢٩ هـ ، وتتبع جمهورية تركمانيا الادارة الدينية لمسلمي وسط آسيا ، وكان التركمان يكتبون لغتهم المعروفة بالجغتانية ، بحروف عربية قبل استبدالها بحروف عربية بالحروف الروسية ، وقد تغير وضع تركمانيا بعد تفكك الاتحاد السوفياتي في سنة ١٩٩١ وأعلنت استقلالها .

الإسلام في طاجكستان :

إن وصول الإسلام إلى هذه المنطقة مرتبط بفتح خراسان و بلاد ماوراء النهر ، فبعد معركة القادسية امتد نفود الإسلام إلى بلاد فارس ، ثم نهر جيجون ثم انتقل إلى منطقة وادي فرغانة ففي الفترة الواقعة بين سنتي ٩٤و٩٦ من الهجرة ، فتح القائد قتيبة بن مسلم منطقة وادي فرغانة وتجاوزها نحو الشرق حتي وصل حدود الصين ، وتم ذلك بفتح كاشغر ، وأكمل صالح بن مسلم ، فتح باقي منطقة وادي فرغانة ، وفتح كاسان وأورشت في وادي فرغانة ، واستمر انتشار الدعوة طيلة العصر الأموي .

وفي العصر العباسي ، ازدادت صلة الخلفاء العباسين بفارس وخراسان ووسط آسيا ، ووثق عصر المأمون صلة بني العباس بهذه المنطقة ، وازدهرت الدعوة في عهد السامانيين والغزنويون ، وفي عهد

الأتراك السلاجقة الذين كونوا دولة واسعة واجتاح المغول منطقة وسط آسيا بعد ضعف الدولة السلجوقية ، ولما ضعفت دولة المغول سيطر الروس على المنطقة ، واصبحت طادجيكستان جمهورية اتحادية في سنة ١٣٤٨ هـ ، وأدي ذلك إلى تناقص عدد المساجد وانعدام التعليم الديني .

ويتبع المسلمون في جمهورية طاجيكستان الإدارة الدينية لمسلمي وسط آسيا والتي توجد في طشقند وفي سنة (١٤١١ هـ- ١٩٩٠ م) شهدت طادجيكستان انتفاضة ضد السلطات السوفياتية وأعلن العصيان المدني لم يستطيع الروس قمع الصحوة الإسلامية في هذه المناطق ، وقبل أن ينتهي عام ١٩٩١ تفكك الاتحاد السوفياتي وأعلنت طادجيكستان استقلالها .

الاسلام في سمرقند :

تقع سمرقند في جمهورية أوزبكستان ، وكلمة "قند" فارسية تعني : مدينة، ولم تفسر كلمة "سمر" حتى الآن تفسيرًا مقنعًا .

ولقد كانت سمرقند عاصمة بلاد ما وراء النهر لمدة خمسة قرون منذ عهد السامانيين إلى عهد التيموريين، كما كانت سمرقند وبخارى أهم حاضرتين فيما وراء النهر .

مناخها قاري كالمناخ السائد في آسيا الوسطى . عدد سكان سمرقند حوالي نصف مليون نسمة .

مكانتها :

تعتبر سمرقند الآن من أهم المدن نشاطًا في أوزبكستان في مجال الزراعة والتجارة والصناعة .

دمرت سمرقند عبر تاريخها ثلاث مرات: أولها كان عام ٣٢٩ ق.م على يد الإسكندر وكان اسمها وقتذاك (مرقندا)، وثانيها في عهد جنكيزخان عام (٦١٧هـ/١٢٢٠م)، وثالثها كان على أيدي الأوزبك في منتصف القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، وكانت قبائل الأوزبك وقتذاك لم تعتنق الإسلام بعد .

الفتح الإسلامي :

بدأ الفتح الإسلامي لمناطق ما وراء النهر (نهر جيحون) منذ عام (٤٦هـ)، ثم عُين قتيبة بن مسلم واليًا على خراسان وكان حاكم سمرقند يسمى طرخون .

في عام (٩١هـ/٧٠٩م) تصالح طرخون مع قتيبة بن مسلم على أن يؤدي الجزية للمسلمين ويقدم لهم الرهائن، غير أن ذلك أغضب رعاياه فخلعوه وعُين إخشيد غورك مكانه، ولكن قتيبة بن مسلم أجبره على التسليم في عام ٩٣هـ/٧١٢م بعد أن حاصر سمرقند وقتًا طويلا .

ظلت سمرقند وبخارى قاعدة للفتوح الإسلامية الأخرى ونشر الإسلام في البلاد .

مرت سمرقند بفترات من الضعف بعد ذلك، بعد أن تقدم الإسلام منها إلى الصين والهند وروسيا ذاتها، حتى إن الأراضي الروسية ظلت خاضعة للسيطرة ثلاثة قرون، وكان دوق موسكو يدفع الجزية سنويًا لأمير بخارى، ولكن قياصرة روسيا سرعان ما استردوا هذه المناطق الإسلامية وسقط أول حصن إسلامي وهو حصن (آق مسجد) في بلاد ماوراء النهر بيد الروس عام ١٨٥٢ م .

وبينما كانت الدولة العثمانية في منتصف القرن السادس عشر تهدد أوروبا وتزحف إلى أفريقيا وآسيا، كانت روسيا القيصرية تهاجم سمرقند وغيرها من تلك البلاد الإسلامية، وحين قام النظام الشيوعي عام (١٣٤٢هـ/١٩٢٣م) في روسيا صارت سمرقند ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق حتى انهياره عام (١٤١٢هـ/١٩٩١م)، فصارت سمرقند إحدى مدن جمهورية أوزبكستان بعد الاستقلال .

فتح بلاد ما وراء النهر

يمكن تقسيم بلاد ما وراء النهر إلى خمسة أقاليم: الصغد وفيه بخارى وسمرقند، وخوارزم ويختلف عن إقليم خراسان الذي يقع جنوبه، والصغانيان وبذخشان والختّل وفيه مدينة ترمذ، وفرغانة، والشاش. وبلاد ماوراء النهر جزء من تركستان الغربية التي تضم في الوقت الحاضر: جمهورية أوزبكستان وطاجكستان، وقد سكنها الترك، وكان لهم فيها إمبراطورية عظيمة قبل الميلاد، وقد سكن المنطقة أيضاً الإيرانيون أيضاً ويبدو أنهم اغتصبوا تلك الأصقاع من الترك، وكانت عقائد أهل المنطقة الزرادشتية وهي ديانة الإيرانيين والبوذية القادمة من الشرق .

وكان لملوكهم ألقاب منها: خاقان: وهو لقب من ألقاب السيادة التي تطلق على أباطرة المغول والترك العظام ومعناه ملك الملوك. وأما الخان فهو الحاكم الإقليمي لبعض الولايات التي كانت تتكون منها الإمبراطورية المغولية في تركستان. أما طرخان فكان يطلق على الأشراف من الرجال الذين يمنحهم الخاقان امتيازات خاصة تشمل الإعفاء من الضرائب مع الحق في أخذ نصيب من غنائم المعركة، ومنها الدخول إلى أرض الخاقان بدون استئذان. وطرخون صيغة أخرى من طرخان وله امتيازات الإعفاء من الضرائب والامتيازات الأخرى، فهما لفظان بمعنى واحد .

وكان ملوك بلاد ماوراء النهر مستقلين استقلالاً ذاتياً ولكنهم كانوا جميعاً يدينون بالولاء للخاقان عملياً أو نظرياً، ولكن الحرب كانت تجمعهم

ليصبحوا صفاً واحداً على عدوهم المشترك في الدفاع عن مصالحهم المشتركة. وأما عن قصة الفتح الإسلامي لها زمن قتيبة فقد وصل قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٨٦هـ خراسان والياً، فخطب الناس وحثهم على الجهاد، وانطلق قتيبة، فلما كان ب(الطالقان) تلقاه دهاقين بلخ وبعض عظمائها وساروا معه، فلما قطع نهر جيحون – النهر الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والتركية – تلقاه ملك (الصغانيان) بهدايا ومفتاح من ذهب ودعاه إلى بلاده فمضى معه وسلمه بلاده، ثم سار إلى ملك (أخرون وشومان) فصالحه ملكها على فدية أداها إليه .

وفي سنة ٨٧هـ قدم نيزك طرخان فصالح قتيبة عن أهل (باذغيس) على أن لا يدخلها، وأطلق الأسرى المسلمين الذي كانوا في يديه وبعثهم إلى قتيبة ثم قدم إليه نيزك بنفسه. ثم سار قتيبة من (مرو) إلى (آمل) ثم مضى إلى (زم)، ثم اجتاز نهر جيحون وسار إلى (بيكند)، من بلاد (بخارى) فاستنصروا (الصغد)على قتيبة فأتوهم في جمع كثير، وتأهب المسلمون للقتال ثم تزاحفوا والتقوا، واعتصم من بالمدينة بالمدينة، فركز سلاح الفعلة (المهندسين) على سورها لهدمه فسألوا الصلح فصالحهم، وأمر عليهم رجلاً من بني قتيبة، وارتحل عنهم فلما سار مرحلة أو مرحلتين[المرحلة = ٩٠ كم تقريباً]نقضوا عهودهم فقتلوا العامل وأصحابه ومثلوا به، وبلغه الخبر فرجع إليهم، وقد تحصنوا فحاصرهم وقاتلهم شهراً، واستطاع خرق التحصينات، فطلبوا الصلح فأبى وقاتلهم ؛ لأن النصر قد تحقق فظفر بهم عنوة فقتل من كان فيها من المقاتلين، وعمر أهل (بيكند) مدينتهم ثانية بإذن قتيبة .

ثم قفل يريد مرو فإذا ب(طرخان ملك الصغد) و(كوربغانون ملك الترك) في مائتي ألف يريدون قتاله فهزمهما. وفي سنة ٨٨هـ فتح (نومشكت) و(رامثينة) من بخارى وصالح الأهالي، وفيها غزا ملك الترك (كوربغانون (قتيبة في مائتي ألف مقاتل من أهل الصغد وفرغانة فكسرهم قتيبة وغنم منهم كثيراً. وفي سنة ٩٨هـ سار قتيبة إلى ملك بخارى (وردان خذاه) فلقيه في طريقه (الصغد) وأهل (كش (فقاتلوه فظفر بهم، ومضى إلى بخارى ولكنه لم يحقق نصراً حاسماً فرجع إلى مرو .

وفي سنة ٩٠هـ جدد قتيبة الصلح بينه وبين (طرخون ملك الصغد) وسار إلى (بخارى (ففتحها، وفي السنة نفسها غدر (نيزك طرخان) ونقض الصلح وامتنع بقلعته، وأرسل له قتيبة من استدرجه حتى جاء بنفسه مستسلماً، واستشار الأمراء في قتله فاختلفوا فقال :والله إن لم يبق من عمري إلا ما يسع ثلاث كلمات لأقتلنه، ثم قال: اقتلوه اقتلوه اقتلوه، فقتل. وفي سنة ٩١هـ فتح مدينة (شومان) بعد الحصار بالمنجنيقات، وفي السنة التي تليها فتح مدينتي (كش) و(نسف) .

قتل القائد النجيب قتيبة بن مسلم
بزلة زلها سنة ٩٦هـ

قالوا: وكان قتيبة مستوحشاً من سليمان بن عبد الملك. وذلك أنه سعى في بيعة عبد العزيز بن الوليد فأراد دفعها عن سليمان.فلما مات الوليد وقام سليمان خطب الناس فقال: إنه قد وليكم هبنقة العائشي. وذلك أن سليمان كان يعطي ويصطنع أهل النعم واليسار ويدع من سواهم. وكان هنبقة وهو يزيد بن ثروان، يؤثر سمان إبله بالعلف والمرعى ويقول: أنا لا أصلح ما أفسد الله. ودعا الناس إلى خلعه. فلم يجبه أحد إلى ذلك. فشتم بني تميم ونسبهم إلى الغدر وقال: لستم بني تميم ولكنكم من بني ذميم.

وذم بني بكر بن وائل وقال: ياإخوة مسيلمة - ويقصد مسيلمة الكذاب - ، وذم الأزد فقال: بدلتم الرماح بالمرادي، وبالسفن أعنة الحصن ، وقال: يا أهل السافلة ولا أقول أهل العالية! لأضعنكم بحيث وضعكم الله.

قال: فكتب سليمان إلى قتيبة بالولاية وأمره بإطلاق كل من في حبسه، وأن يعطى الناس أعطياتهم، ويأذن لمن أراد القفول في القفول. وكانوا متطلعين إلى ذلك. وأمر رسوله بإعلام الناس ما كتب به، فقال قتيبة: هذا من تدبيره علي، وقام فقال: أيها الناس! إن سليمان قدمناكم مخ أعضاد البعوض، وإنكم ستدعون إلى بيعة أنور صبي لا تحل ذبيحته.

وكانوا حنقين عليه لشتمه إياهم. فاعتذر من ذلك وقال: إني غضبت فلم أدر ما قلت، وما أردت لكم إلا الخير فتكلموا وقالوا: إن أذن لنا في

القفول كان خيراً له، وإن لم يفعل فلا يلومن إلا نفسه. وبلغه ذلك فخطب الناس فعدد إحسانه إليهم، وذم قلة وفائهم له، وخلافهم عليه، وخوفهم بالأعاجم الذين استظهر بهم عليهم. فأجمعوا على حربه ولم يجيبوه بشيء. وطلبوا إلى الحضين بن المنذر أن يولوه أمرهم فأبى، وأشار عليهم بوكيع بن حسان بن قيس بن أبي سود بن كلب بن عوف بن مالك بن غدانة بن يربوع بن حنظلة التميمي، وقال: لا يقوى على هذا الأمر غيره، لأنه إعرابي جاف، تطيعه عشيرته وهو من بني تميم، وقد قتل قتيبة بني الأهتم فهم يطلبونه بدمائهم.

فسعوا إلى وكيع فأعطاهم يده، فبايعوه. وكان السفير بينه وبينهم قبل ذلك حيان مولى مصقلة، وبخرا سان يومئذٍ من مقاتلة أهل البصرة أربعون ألفاً، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف، ومن الموالي سبعة آلاف. وإن وكيعاً تمارض ولزم منزله، فكان قتيبة يبعث إليه وقد طلى رجليه وساقه بمغرة فيقول: أنا عليل لا تمكنني الحركة.

وكان إذا أرسل إليه قوماً يأتونه به تسللوا وأتوا وكيعاً فأخبروه فدعا وكيعٌ بسلاحه وبرمح، وأخذ خمار أم ولده فعقده عليه. ولقيه رجل يقال له إدريس فقال له: يا أبا مطرف! إنك تريد أمراً وتخاف ما قد أمنك الرجل منه، فالله الله. فقال وكيع: هذا إدريس رسول إبليس! أقتيبة يؤمنني؟ والله لا آتيه حتى أوتى برأسه.

ودلف نحو فسطاط قتيبة، وتلاحق به الناس، وقتيبة في أهل بيته وقومٌ وفوا له. فقال صالح أخوه لغلامه: هات قوسي، فقال له بعضهم وهو

يهزأ: أنه ليس هذا يوم قوس. ورماه رجلٌ من بني ضبة فأصاب رهابته فصرع وأدخل الفسطاط فقضى، وقتيبة عند رأسه. وكان قتيبة يقول لحيان، وهو على الأعاجم. احمل. فيقول: لم يأن ذلك بعد.

وحملت العجم على العرب. فقال حيان: يا معشر العجم! لم تقتلون أنفسكم لقتيبة؟ ألحسن بلاته عندكم؟ فانحاز بهم إلى بني تميم. وتهايج الناس وصبر مع قتيبة اخوته، أهل بيته وقومٌ من أبناء ملوك السغد انفوا من خذلانه. وقطعت إطناب الفسطاط وإطناب الفازة فسقطت على قتيبة أو سقط عمود الفازة على هامته فقتله. فاحتز رأسه عبد الله بن علوان.

وقال قومٌ منهم هشام بن الكلبي: بل دخلو عليه، فسطاطه فقتله جهم بن زحر الجعفي، وضربه سعد بن مجد، واحتز رأسه ابن علوان.

قالوا: وقتل معه جماعةٌ من أخوته وأهل بيته وأم ولده الصماء، ونجا ضرار بن مسلم، أمنه بنو تميم.

وأخذت الأزد رأس قتيبة وخاتمه، وأتى وكيع برأس قتيبة فبعث به إلى سليمان مع سليط بن عطية الحنفي.

وأقبل الناس يسلبون باهلة فمنع من ذلك.

وكتب وكيع إلى أبي مجلز لاحق بن حميد بعهده على مرو فقبله، ورضى الناس به. وكان قتيبة يوم قتل ابن خمس وخمسين سنة.

المصـــادر والمراجع

- تاريخ الرسل والملوك
- الكامل فى التاريخ
- البداية والنهاية
- المنتظم
- فتوح البلدان
- محاضرات فى تاريخ الدولة الأموية
- تاريخ الخلفاء
- سير أعلام النبلاء
- الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا – سيد عبد المجيد بكر .
- تاريخ الطبري .
- البداية / والنهاية
- والكامل لابن الأثير
- والأعلام للزركلي.

فهرس

مقدمة ٥

الدولة الأموية ٧

قتيبة بن مسلم ١٨

رحلة مجد قتيبة ٢٦

خصال الأسد الجسور ٣٠

خلافة الوليد بن عبد الملك وولاية قتيبة ٣٦

قتيبة والانتصار على الخوارج ٤٠

قتيبة والحياة السياسية ٤٧

طريق الحرير البحرى فى العهد الإسلامى ٥٣

قتيبة نشر الإسلام على حدود الصين ٥٦

إقليم كاشغر وقتيبة بن مسلم ٦٠

عداوة سليمان بن عبد الملك لقتيبة ٧٢

دول دخلها الإسلام على يد قتيبة ٧٤

فتح بلاد ما وراء النهر ٨١

قتل القائد النجيب قتيبة بن مسلم..... ٨٤

المصادر والمراجع ٨٧

فهرس ٨٨